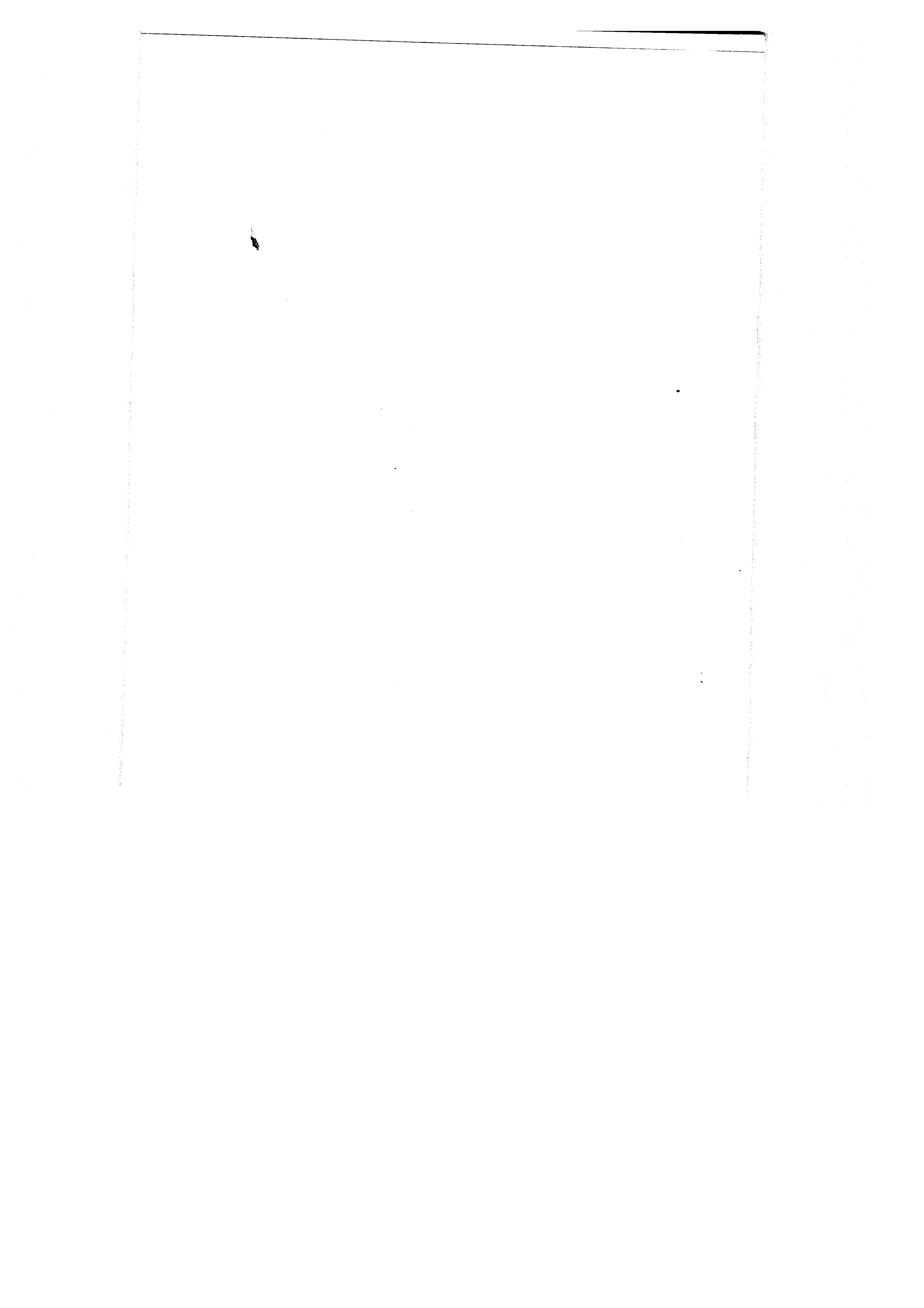
بيرم التونسى

أمير شعراء العامية

حياته .. وشعره

إعداد ودراسة وتحقيق
عاطف عمارة



أمير شعراء العامية
بيرم التونسى

اسم الكتاب	أمير شعراء العامية
اعداد	عاطف عمارة
الناشر	الحرية للنشر والتوزيع ٣ ميدان عرابى - وسط البلد - القاهرة
رقم الايداع	٢٥٧٨ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى	203-23-85-7

مقدمـــة

فى حياة كل أمة عدد كبير من الأدباء والشعراء .

لكن الأدباء والشعراء الكبار وحدهم فقط هم الذين يؤثرون فى حياة الأمم ويتركون بصماتهم واضحة على تاريخ الأمم والشعوب. ولذلك يعتبر الأديب أو الشاعر بحق «ضمير أمته» فهو صوتها، المعبر الناطق بما يعتمل فى عقلها ووجدانها، وهو قلبها النابض الذى يعكس حياتها بكل خلجة من خلجاتها .

وهو الرئة التى تتنسم بها الأمة هواء الحرية حين يكتم الطغاة والجبابرة أنفاس الشعب ويضيقون عليه الخناق .

وقد يكون التاريخ هو السجل الحافل لحياة الأمم والشعوب ، ولكن التاريخ نفسه قد يكذب إذا كان الذين يكتبون صفحاته من أصحاب الذمم الخربة والضمائر الميتة من أعوان السلطان ، أما التاريخ الأدبى الذى يعبر فيه الأدباء والشعراء عن حياة الأمم فهو لا يكذب أبداً ، فالأدب دائما يعبر عن وقائع اجتماعية وتاريخية، يسجلها ويتجاوز فعل التسجيل إلى فعل النقد، وبين التسجيل والنقد . تظل الوقائع حاضرة ، حية ، نابضة ، لا سبيل إلى تزيفها أو تجميلها .

على أن الإبداع الأدبى خاصة ، والفنى عامة ، ليس مجرد تسجيل تاريخى للوقائع والأحداث ، وإن كان الإبداع لا ينعزل أبداً عن إطاره المجتمعى والتاريخى ، فالإبداع يرتكز على عناصر متعددة تتمثلها الذات المبدعة وتتفاعل معها ثم تعيد إنتاجها إبداعيا

وليس الآن مجالنا للحديث عن عناصر الإبداع ، إنما اريد هنا التركيز على علاقة الإبداع بالحياة والمجتمع قضاياه الحيوية ، لأن مثل هذه العلاقة هى التى تحدد فى النهاية مدى قيمة وقامة الأديب أو الشاعر ومدى أهمية وقيمة إبداعه بين سائر أدباء وشعراء جيله خصوصا وعصره عموما .

والواقع أنه لم يترك شاعر أو أديب فى أمة من الأمم مثلما ترك «بيرم التونسى» من أثر فى حياتنا ، والمتأمل فى شعر «بيرم» يجده يغطى الكثير من الجوانب والموضوعات : الذاتية ، الاجتماعية ، السياسية ، الاقتصادية ، الثقافية ، وغيرها من الجوانب التى تعكس حياة الإنسان والمجتمع .

كان «بيرم التونسى» إذن من الشعراء الذين لا يقصرون إبداعهم على الموضوعات الذاتية أو العاطفية فحسب ، معنى ذلك أن وعيه الأدبى كان يتسع لإدراك المعنى الحق للإبداع ورسالة الفنان تجاه المجتمع ، وقد انعكس هذا الوعى بوضوح كامل فى كل ما تركه «بيرم» من آثار أدبية .

والواقع أنه لم يصطدم بالسلطة أديب أو شاعر كما أصطدم بها «بيرم التونسى» وربما الوحيد الذى لا يقل عنه فيما عاناه من الصدام مع السلطة هو «النديم » أما «بيرم» فقد حكم عليه بالنفى ، وعاش فى الغربة وأكتوى بها ثم عاد متحديا حكم النفى وعاش مختفيا بين الناس ، وظل يكتب دون أن يتراجع إلى آخر لحظة فى حياته ، لأنه لم يختر الوقوف إلى جانب السلطان، إنما كان اختياره منذ البداية هو الوقوف فى صف الشعب ، ولو كان قد أختار جانب السلطة مثل أغلب الأدباء والشعراء وأصحاب الأقلام المأجورة لما احتل هذه المكانه فى تاريخ الأدب ولا هذا الحيز المتصدر لقلب الأمة وذاكرتها .

فالأمة هى التى أطلقت على « سيد درويش» لقب موسيقار الشعب ، وهى أيضا التى أطلقت على «بيرم التونسى» لقب شاعر الشعب ، وهى ألقاب لها دلالتها الخاصة على مكانه كل منهما فى الوجدان الشعبى .

و«بيرم التونسى» هو الذى قال : (**لولا النقد البناء لهلك الناس ولطغى الباطل على الحق ولامتطى الأرذال ظهور الأفاضل . وبقدر ما يخفت صوت الناقد يرتفع صوت الدال ....)**

وإذا كان هذا هو رأى «بيرم» فى النقد فلنا أن نتصور كيف ترجمت أعماله هذا الرأى وعبرت عنه ، وان ندرك إلى أى مدى كانت أعماله تعتمد على النقد الاجتماعى المباشر والصريح .

ولهذا كان «بيرم» يعتقد مؤمنا بحق أن : (**العمل الفنى الرائع يظل جديدا مادامت السموات والأرض وتتكشف محاسنه كلما كثر المثقفون المبصرون ...) .**

كان «بيرم» إذن صاحب فلسفة فى الفن ، وكانت أزجاله تصدر عن إيمان برسالة يعتقد بموجبها أن على الفنان أن ينذر حياته كلها فى النضال من أجل تحقيق هذه الرسالة ، ولهذا السبب استحق «بيرم» الخلود . لأنه عاش من أجل قضية سامية هى قضية الوطن وتحريره والسعى لتقدمه ورقية والدفاع عن الشعب المطحون الذى تحول أيام الملكية والاستعمار إلى شريحة كبرى من المهمين والمنبوذين .

وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لتقديم صورة متكاملة عن حياة «بيرم التونسى» وأعماله وفكره وفلسفته فى الفن ونضاله من أجل تحقيق رسالته التى عاش من أجلها ، ونفى وتعرض لكثير من المحن والصعاب .

لكنه ضحى بكل شئ فى سبيل هذه القضية التى آمن بها ، ولم يعش لنفسه . فكان مثال الفنان الأصيل ، الصادق العبقرى ، فأستحق بذلك أن يلقب: (بالنبع الخالد ، شاعر الشعب ، أمير شعراء العامية ، رائد التجديد ، نذير الثورة ضمير الأمة المعبر عن طموحتها فى العدل والحرية والتحرر والتقدم) .

أنها صفحات مضيئة من حياة «بيرم» وكفاحه نهديها إلى كل من يسير على هديه ويتبع خطا على نفس الطريق .. طريق الكفاح والنضال من أجل الحرية والتحرر والتقدم ....

عاطف عمارة

القاهرة : ٢٠٠٢

الفصل الأول

محمود بيرم التونسي

(موجز حياة)



بيرم التونسى المولد والنشأة

ولد " محمود بيرم التونسى " فى ٢٣ مارس عام ١٨٩٣ فى شارع البورينى فى حى السيالة فى الأنفوشى بالإسكندرية .

وقد وصف " بيرم " الحى الذى ولد فيه فى مذكراته بقوله : **(عشت فى صورة طبق الأصل من عشش الترجمان القاهرية .. كنت ترى رجالا ترقص القرود .. ونساء يتجولن فى الأزقة بمعهز ترعى القمامة .. وأطفالاً يجمعون السبارس .. وكانت أكثر المبانى مؤلفة من عشش الصفيح المرقعة بالخيش والأبراش التى يعلوها الدجاج والمعيز .. وكان قسم كبير من هذه العشش يمتد فى شارع رأس التين الموصل إلى السراى العامرة حتى يتفرج عليه السفراء والقناصل فى كل تشريفه)** .

فى هذه البيئة الشعبية نشأ " بيرم التونسى " وتلقى تعليمة الأول فى كتاب الشيخ جاد الله " فى زاوية خطاب ، لكنه لم يلبث أن طرد من الكتاب لأنه " كان بليد فى الحساب " فألحقه والده للعمل فى محل بقالة لكنه طرد أيضا بعد فترة وجيزة بسبب إهماله للدكان وسعيه لاستماع المواويل فى الأحياء الشعبية .

ثم ألحقه والده بعد ذلك بالمعهد الدينى بمسجد المرسى أبو العباس لرغبته فى أن ينشأ فقيها . وفى هذا المعهد واصل " **بيرم التونسى** " دراسته إلى أن أضطر إلى تركها لوفاة والده .

كانت وفاة والد " **بيرم** " نقطة تحول فى حياته لأنها أرغمته على عدم إكمال الدراسة والتفرغ للعمل للإنفاق على والدته ، لأن أولاد عمومته احتالوا عليه فى ميراث والده وكانوا قد دفعوه إلى بيع نصيبه فى المصنع والدكان الذى تركه والده، وخرج "**بيرم التونسى**" ليواجه الحياة ويعمل فى التجارة.

وتزوجت أمه للمرة الثانية وأنتقل " **بيرم** " للعمل مع زوج أمه الذى كان يعمل فى صناعة هوادج الجمال وهى حرفة كان لها تأثيرها الخاص فى تقوية البنيان الجسدى " **لبيرم** " .

ولم تلبث والده " **بيرم** " أن توفيت بعد قليل فأنتقل " **بيرم** " للعيش مع أخته ، وبعد فترة غير قصيرة باع " **بيرم** " البيت الكبير الذى كانت تسكنه والدته وتزوج وأشترى بيتا أصغر وأستثمر باقى المبلغ فى تجارة البقالة .

كان " **بيرم** " فى هذه الفترة قد قرأ ابن الرومى وغيرة من كبار أعلام الشعر العربى ، وقرأ الكثير من السير الشعبية مثل (" **ألف ليلة وليلة** " و" **سيرة عنترة** " و " **أبو زيد الهلالى** " و " **سيف بن ذى يزن** " **وغيرها**) .

وكان " **بيرم** " يقرأ كل ما يقع تحت يده ويبحث عن المعرفة ليروى نهمة ، وقد كتب فى هذه الفترة الكثير من القصائد والأزجال لكنه مزقها ظنا منه أنها دون المستوى ، أما البداية الحقيقة التى وجهت " **بيرم** " لاحتراف مهنة الأدب فكانت عندما طالبه المجلس البلدى بمبلغ كبير كعوائد عن المنزل الجديد الصغير الذى اشتراه فكتب " **بيرم** " قصيدة " **المجلس البلدى** " ومطلعها :

قد أقع القلب فى الأشجان والكمد
هوى حبى يسمى المجلس البلدى
ما شرد النوم عن جفنى القريح سوى
طيف الخيال ، خيال المجلس البلدى

وهى من أوائل القصائد التى كتبها " بيرم " وتبدت فيها سخريته المريرة من الواقع حتى أنه يقول :

إذا الرغيف أتى فالنصف آكله
والنصف أتركه للمجلس البلدى
وإن جلست فجيبى لست أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدى
وما كسوت عيالى فى الشتاء ولا
فى الصيف إلا كسوت المجلس البلدى
كأن أمس أبَلّ الله تربتها
أوصت فقالت : أخوك المجلس البلدى
أخشى الزواج إذا يوم الزواج أتى
يبغى العروس صديقى المجلس البلدى
وربما وهب الرحمن لى ولدا
فى بطنها يدّعيه المجلس البلدى
يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدى

كتب " **بيرم** " هذه القصيدة وذهب بها إلى جريدة الأهالى فأعجب بها "**عبد القادر حمزة** " رئيس التحرير ونشرها ، وكانت هذه القصيدة هى البداية الحقيقة التى قرر بها " **بيرم** " بعدها أن يحترف مهنة الأدب ، لأن هذه القصيدة قد راجت رواجا عظيما وطبعها " **بيرم** " فى كتيبات صغيرة مع قصائد أخرى بعد ذلك .

وقد شعر " **بيرم** " بأن الشعر فى زمنه قد انقطعت صلته بالناس فتحول إلى الزجل لسهولته وقربه من العقول والقلوب .

وكان " **بيرم** " قد استفاد من " **محمد توفيق** " الزجال وصاحب جريدة "**حمارة منيتى** " فائدة عظيمة بمتابعة ما ينشره من أزجال تتسم بالسخرية والهجاء الحاد ضد " **محمد عبده** " .

وهكذا قرر " **بيرم "تونسى** " أن يستلهم روح السخرية ووظفها فى النقد الاجتماعى من خلال الزجل .

وبهذا بدأ " **بيرم التونسى** " طريقة فى الحياة الأدبية .

بدأ " **بيرم التونسى** " ينشر قصائدة وأزجاله فى الصحف والمجلات بشكل منتظم ، ثم أصدر مجلة " **المسلة** " ، وأشتغل فى الإذاعة ، ثم بدأ يهتم بكتابة الأغنية ، وأقتضى كل ذلك منه أن ينتقل إلى القاهرة وأن يتصل بالوسط الفنى والكتاب والشعراء وأهل الطرب الغناء ، و " **لبيرم** " مع كل واحد من هؤلاء قصة طريفة . أولها قصة اللقاء بينه وبين موسيقار الشعب "**سيد درويش** " ثم قصته مع الموسيقار " **محمد عبد الوهاب** " وبعدها قصة اللقاء مع كوكب الشرق " **أم كلثوم** " فهؤلاء العمالقة جميعا وغيرهم قد أعجبتهم كلمات " **بيرم التونسى** " وتغنوا بها ..

ولم يقتصر " بيرم " فى تعامله على هؤلاء العملاقة فحسب بل أنه قد تعامل أيضا مع أسماء أخرى كان لها باعها الطويل فى عالم الطرب والغناء

أمثال : (فريد الأطرش وأسمهان وشهرزاد ومحمد الكحلاوى ومحمد قنديل ونور الهدى) .

أما " محمد عبد الوهاب " فلم يستمر " بيرم " فى الكتابة له بعد الأغنية الثانية إذ حدثت القطيعة بينهما على أثر الخلاف الحاد الذى نشب نتيجة لتدخل " عبد الوهاب " فى الكلمات التى يكتبها " بيرم " بشكل سافر ، وأما "أم كلثوم " فقد كتب لها " بيرم التونسى " حوالى ٣٢ أغنية كان أولها فى عام ١٩٤١ وآخر عام ١٩٧٢ حيث غنت " أم كلثوم " آخر أغانيها من كلمات "بيرم " بعد وفاة " بيرم " نفسه بفترة طويلة فقد توفى " بيرم " يوم ٥ يناير ١٩٦١ وكانت أغانيه التى كتبها لكوكب الشرق من أشهر أغانيها .

وبالإضافة إلى اهتمام " بيرم " بالأغنية فإنه لم ينس الكتابة للاذاعة والمسارح والصحافة، فقد أصدر مجلة "المسلة" و "الخازوق".

وعندما انتقل إلى بيروت وسوريا كتب فى مجلة " الشباب " وشارك فى تحرير مجلة " الزمان " كما أصدر ديوانه الأول والثانى ثم أصدر كتاب السيد ومراته فى باريس " وبدأ فى كتابة مذكراته كما كتب " بيرم " عدة " مقامات " لا تقل شهرة عن قصائده وأزجاله وأغانيه .

وكان هدفه فى كل ما يكتبه هو النقد والإصلاح . وقد أدى به هذا إلى اعتبار الفن رسالة اجتماعية سامية يحقق بها الأديب أهدافه فى إصلاح المجتمع ، ولهذا السبب نشر " بيرم " فى قصيدة " البامية الملوكى والقرع السلطانى " فى مجلته الخاصة والتى دفعت السلطان إلى إصدار قرار نفيه من مصر لأول مرة .

وبهذا تعرض " بيرم التونسى " لحياة الغربة والتشرد وذاق مرارة الفقر والحرمان والغربة عن الأهل والوطن ، واضطر إلى السفر إلى تونس حيث تنكر له أهل والدة .

ثم طرده السلطان من تونس إلى فرنسا ، واضطر " بيرم " إلى العمل فى فرنسا فى أحط الأعمال بعد فترة طويلة من الجوع والتشرد .

ثم سنحت له فرصة العودة خلسة إلى مصر فعاد وظل مختفيا إلى أن علمت السلطات بوجودة فأصدرت قرارها بترحيلة مرة أخرى إلى فرنسا حيث قضى فى المنفى سنوات طويلة إلى أن صدر العفو عنه مرة أخرى بعد توسط الكثير من الأصدقاء وأهل الحل والعقد .

عندئذ عاد " بيرم " إلى مصر وبدأ من جديد رحلة كفاحة مع الفن ، لكنه لم يتراجع أبدا عن الطريق الذى ارتضاه لنفسه منذ البداية وهو طريق النقد الاجتماعى ، فقد كان " بيرم " على ثقة من أن أحوال المجتمع المصرى لن تتغير إلا بالنقد .

وأن تخلفنا الذى نعانية هو نتيجة للجهل والاستعمار .

ولذلك ظل " بيرم " على إيمانه بضرور. تعليم المرأة وتحرير المجتمع من الجهل. وراح يستغل كل مناسبة للحديث عن المرأة فى النقد، ومن ذلك قوله :

يا منيلة دا اللى من مثلك ما حقة جواز
غلبتى جوزك وعلمتيه على النزناز
مبسوطة لما بسلامته يروح يقول لمك
دى كل ليلة تجيب لى الأكل متعاص جاز
يوم طبخة العدس أشوفك تبقى محتاسه
ما تخلى فى البيت لا حلة ولا طاسه
وتقعدى تبعترى المواعين فى الفسحة
وتبقى أرض المطارح كلها كناسة

فالمرأة غير الصالحة فى بيتها فى نظر " بيرم " هى أصل البلاء كله لأنها هى التى تربى الأولاد وتبث فيهم الأفكار السلبية والخرافات أو تهلكهم بالمرض نتيجة جهلها ولذلك فهو يقول لها :

ما تمضغيش للعيال الأكل بسنانك
والنفخ ى الأكل سم مفرض إيمانك
إخيه عليكى بقيتى خصلتك سوده
ما تسمعيش الكلام تنشكى فى لسانك
ما تحسبيش من عمايلك ربنا يحبك
بطن الولد توجعه والأكل يتلبك
بعدين يخسك قوى ويموت بالعربى
قلت اللى فيها بقى وذنبك على جنبك

وهو يؤكد على دور الأم فى التربية وضرورة تنشئه الأولاد بعيدا عن العادات القديمة والخرافات والأساطير وفى ذلك يقول ساخرا :

وبطلى قوله العفريت والغولة
ليطلع الواد عبيط والبنت مخبولة
ماتعرفيش الكلام ده يتلف الأولاد
ويفرجوكى المرار وتعيشى مخبولة

وكما أهتم " بيرم " بالنقد الاجتماعى فى قصائدة وأزجالة فكذلك كانت أغلب كتاباتة الأخرى سواء منها المقامات أو المسرحيات أو الأوبريتات ومنا " شهرزاد " التى لحنها " سيد درويش " أو " عزيزة ويونس " أو " السيد ومراته فى باريس "

وقد تعرض " بيرم " فى كل كتاباته بالنقد لمختلف الطبقات ولمختلف جوانب الحياة المصرية فلم يترك ظاهرة إلا وتناولها بالنقد الساخر .

المقامات :

كتب " بيرم " الكثير من المقامات ، وقد وصل عدد المقامات التى نشرها فى مجلة " ابن البلد " وغيرها إلى ٢٥٠ مقامة ، ومن المعروف إن المقامة من الفنون الأدبية القديمة الرائجة أكثر من الشعر . ومن أشهر المقامات فى تراثنا مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان الهمزانى ، إلا أن مقامات "بيرم " تختلف عن المقامات القديمة المألوفة لأن " بيرم " كالعهد به قد أدخل الكثير من التجديد على فن المقامة .

ومن تجديده فى هذا الفن أنه لم يقتصر على بطل واحد يكون المحور لكل مقاماته كما هى الحال فى المقامات التراثية الجديدة ، بل عمد " بيرم " إلى اختيار شخصية جديدة لكل مقامة من مقاماتة وقد ساعدة ذلك على التنوع فى أختيار الموضوع .

كما كانت كل شخصية تمثل فئة من الناس أو طبقة أو أصحاب حرفة من الحرف ، وبذلك تمكن " بيرم " من تناول العديد من النماذج البشرية المختلفة والمهن والحرف المتناقضة .

وكان الهدف من المقامة فى النهاية هو النقد أيضا ، فالمقامة "الفسيخية " محورها " الجوع " ويبدأها " بيرم " على النحو التالى :

(قال فلان بن فلان : نذرت أن رزقنى الله بجنازة عظيمة ، وأخذت منها أجرا ذا قيمة ، لأتغدين بفسيخ ، وأحلين ببطيخ ، وكنت أمر على جارى الفسخانى فأجد عنده فسيخا يعرضه على الموائد ، كأنه عرائس المولد!!)

ثم يتغزل على لسان بطل المقامة فى الفسيخ ببضعة أبيات منها :

هذه الفسيخة فيها الدهن متجمد
لذى البصيرة يبدو من حواشيها
كأن الفضة البيضاء قشرتها
كأنما الذهب الإبريز ما فيها

ويكمل المقامة ، فيقول :

(وشاء الله أن يموت أحد الأعيان ، ذو الأملاك والأطيان ، ولما فرغنا من تشييع جنازته ، تقدم أحد أقاربه وأشار إلينا معشر الفقراء وقال أعطوا كل هؤلاء الوحوش ثلاثة قروش !!) .

ولم يأكل الفقى بطل هذه المقامة الفسيخ إلا على روح " **النذل** " الذى قال : (**أعطوا كل هؤلاء الوحوش ثلاثة قروش**) لأن زوجة هذا "**النذل**" أعجبتها قراءة ذلك الفقى على روح زوجها .

وعلى هذا النحو كان " **بيرم** " يسخر فى مقاماته من الأغنياء ، ويصف حال الفقراء ، وخاصة من أهل الأزهر أو الفقهاء وهؤلاء كان منهم من يدّعى الصلاح والدعوة إلى الإصلاح وهو على غير ذلك من الحال فى حقيقة الأمر وقد وجد " **بيرم** " فى أمثال هؤلاء من رجال الدين فرصة عظيمة لفضح النفاق وأهلة حتى لو كانوا ممن يرتدون العمامة الدينية .

وقد حملت جميع المقامات التى كتبها "**بيرم**" نفس السمات، وحتى عناوينها كانت على نفس النحو الساخر، فمنها المقامة "**البوفيهية**" التى تتحدث عن المأذون، والمقامة "**البيجامية**" وبطلها "**بن فجلان**" وموضوعها التمثيل السياسى ورجال الدبلوماسية والمعايير التى يتم اختيارهم على أساسها.

وفى مقدمتها الاهتمام بالمظهر دون المخبر فى أختيار رجال الدبلوماسية . فهو يقول على لسان " ابن خجلان " :

(وأختاروني للسفر ، لما رأوه من علم وكتب وأدب غزير وملابس حرير ، فقطعوا لي تذكرة ، وسافرت في أول باخرة ، وخرج المشايخ لوداعي ، وهم يودون هدمي واقتلاعي !!) .

ثم يستطرد بعد ذلك ليقول :

(استقبلني المتمهر في الصالون، وأجلسني أمامه على الشازلون، وقال... أعلم أننا لم نستحضرك للسجود والركوع ، ولكن ليتم بك الموضوع ، والسفارات قد جعلت للأبهة والفخار ، لا للنفع والاتجار ، ويلزمها خيرة الموظفين وخيرة رجال الدين وخيرة البوابين ، ولا يلزمنا من العمل إلا الذهاب والإياب والوقوف على الأبواب ، حتى إذا قيل لمن هذا القصر ، قيل هذه سفارة مصر ..!!) .

ويخرج الفالح بن خجلان بعد ذلك من السفارة إلى شوارع باريس فيصاب بالدهشة ويتملكه العجب لكل ما يشاهده من الأحوال ، وخاصة أحوال النساء ، ثم مظاهر المدنية الأخرى كالعمران والمصانع والمنتديات والشوارع والمواصلات ، وسائر وسائل اللهو والترفيه ، وعادات وتقاليد الحياة اليومية ، أما سفور المرأة وثيابها وخروجها إلى العمل وجمالها فقد استرعاه بوجه خاص فأندفع إلى المقارنة بين نساء أوربا ونساء مصر ، فقد هالة ما رآه في باريس من مظاهر التمدن والتقدم والرقي ، واسترعت انتباهه ملابس الناس فقال :

(فأولاد العمد والمشايخ ، مشايخ البلد ، إذا أبصروا مثل هذه المدامه في هذه البيجامه فلن يخرجوا إلا يوم القيامة ..!!)

وقد صمم بن خجلان أن ينهل من باريس وجمالها حتى يرتوي وأن يمتنع عن مقابلة جميع من رافقة في هذه السفرة من أولاد بلده .

فكتب الأبيات التالية على بابه :

يا أيها الزائرى لبست هنا

وهذا الذى تقرؤه خطى أنا

فلا تدق الباب عامدا أو ماجنا

وأذهب ذهبت شاكرا أو لاعنا

ليست أوريا مثل كفر البلينا

أما المقامة " الصندويتشية " فبطلها شخصية دينية متحررة لا تعبأ بتقاليد المشايخ والفقهاء وهى شخصية " **الكامن بن عصر** " الذى أهتم بدرس شتى المذاهب والأفكار وارتياد الصالونات والمراقص ووصفها بعد أن وقف على حقيقة جهلة بأفكار العصر وقصور معارفه الدينية واقتصارها على : (**المنطق وفصوله ، والنحو وفضوله .. الخ**) .

وكانت المرة الأولى التى يذهب فيها " **الكامن بن عصر** " إلى إحدى الحفلات الراقصة من الأحداث التى زلزلت كيانه لهول ما رآه من انخراط القوم فى اللهو والرقص واختلاط الرجال والنساء وكل ما من شأنه أن يعتبر فى عرف رجال الدين من المباذل التى يجب الابتعاد عنها ، وقد دهش الشيخ " ابن عصر " لكل ما رآه ولم يشارك فيه وإنما أنهمك فى تناول الطعام والشراب . خاصة أن سائر مأكولات القوم من الأطعمة التى لم يكن يسمع عنها من قبل فى حياته !! .

ولذلك فقد عقد " ابن عصر " المقارنة بين حياة أهل الترف وبين حياة الفقراء ثم أنشد يقول :

إذا كنت معتزما أن تعيشا فجانب رعاع السورى والوحوشا
ولا تأكل الكشك والحنتويلا وقاطع بصارتهم والدشيشا
فأم " الفلافل " أم الهلاك إذا ما جمعت عليها القريشا
أكلنا زمانا حشيش البقول ولا يأكل الثور إلا الحشيشا
فلله درك من حفلة ودر الذى أطعم الصندويتشا
فأن تولوا فأبعثوا لى رسولا ولو كان هذا الرسول الشاويشا

أما أشهر المقامات التى كتبها " بيرم " عدا ذلك فهى المقامة " الزبيبه " و" المقامة الشتائية " فالأولى بطلها الفاسق بن فسقان ، والثانية بطلها الفاضل بن سعفان ، وتتبدى فى هذه المقامات وغيرها قدرة " بيرم " الفائقة على السخرية ، وروحة النقدية ، ومهارته فى توظيف الشخصيات لعرض الموضوع وتصوير الظواهر ونقدها . تلك الروح التى شاعت فى كل أعماله الأخرى على تنوعها واختلافها .

لذلك يمكننا القول أن " بيرم " قد مارس عبر رحلة حياته المضنية الحافلة بالكفاح والنضال والشقاء والنجاح الكثير من الأشكال الفنية والأدبية والإبداعية ، وانه أبدع من خلالها بنفس الدرجة . لأن النبع الذى يستقى منه إبداعه هو " الروح المتوقد " للفنان المبدع العبقرى الثائر . وهذا الروح هو الذى قاد " بيرم التونسى " فى رحلته نحو الإبداع والخلود .

الفصل الثانى

محمود بيرم التونسى

(الشعر قبل بيرم)



غربة الشعر

إذا أردنا أن نعرف الحاله التى أنتهى إليها الشعر العربى عموما قبل حركة البعث فعلينا أن نستدعى ما كتبه العقاد فى "الفصول" حيث قال:

(وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة ، فملأوه بالتورية والجناس والترجيع ، وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليزينوا بها كتب البيان والبديع ، وظهر فى الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس ، وراح الشعراء يتبارون فى اللعب بالألفاظ وجمعها ، كما يتبارى الأطفال فى جمع الحصى الملون وتنضيده ، وكان الشاعر فهم يلاحق البيت بالبيت أو يشك المصراع بالمصراع ويخلط كلامه بكلام غيره وهو لا يحسب أنه يخل بروح الشعر ، لأنه يلتزم حرف الروى فى كل بيت ، وعروض البحر فى كل قصيدة) .

وفى هذا المعنى يقول على الجارم :

والنفس إن لم تكن بالشعر شاعرة

ظنته كل كلام جاء موزونا

ومع ذلك فإن الشعراء الذين أعادوا الحياة إلى الشعر بعد عصور الانحطاط وفى مقدمتهم :

(" البارودى " و " شوقى " و " حافظ ") .

ثم من جاء بعدهم مثل :

(" المازنى " و " شكرى " و " العقاد ") .

كانوا كلهم لا صلة لهم بالشارع أو هموم الناس ، فضلا عن النفس نفسه، وكان أكثرهم من أتباع السلطة . يهللون لها ويسبحون بحمدها ، فها هو الجارم يقول عن " مولد الفاروق " :

وبدا العرش وقد حل به ولا تأكل	يفرع الشمس ويعلو الأنجما
ورأى بعد سليمان له	مشبها فى عدله إن حكما
وأنه الفاروق من خير أب	فدع المأمون والمعتصما
حسين عز الدين والملك به	هنأ المنبر فيه العلما

وأغلب شعر " الجارم " فى المناسبات الاجتماعية ، كالمدح أو الرثاء وتولى المناصب والتهنئة والتعزية وغيرها من الأمور الخاصة بالطبقة العليا وأهلها فى المجتمع .

أما "شوقى" شاعر القصر وأمير الشعراء فليس يعنيه سوى القصر والحاشية وكبار رجال الدولة والمناسبات الاجتماعية الكبرى، وهو لا يكتب الشعر، بل ينظمة، ويختار موضوعاته بعيدا عن الناس وهمومهم، وهو حتى لو تناول الطبيعية فهو يتغنى بها فى نظم مرصوص الكلمات على وصف العقاد .

أما " العقاد " الذى حمل حملته الشعواء على الشعراء والشعر التقليدى بقيادة أمير الشعراء ، فهو لم يجدد بحق إلا فى شكل الشعر ، أما روحة فقد ظلت جامدة جمود أسلوب العقاد نفسه ، ذلك الجمود النابع من إيمانه الواثق بنفسه وغروره الممتد بذاته وإحساسه بعظمته وكبرياء تلك العظمة وغفلة العالم عنها على قول " محمد مندور " الذى أورد هذه الأبيات " للعقاد " :

يا محى الليل البهيم تهجدا ... والطير أوية إلى الأدكان
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعا ... من نابغ فى غمرة النسيان
قل يا شبية النابغين إذا دعوا ... والجهل يضرب حولهم بجران
كم صيحة لك فى الظلام كأنها ... دقات صدر للدجنة حسان
هذه اللغات ولا لغات سوى التى ... رفعت بهن عقيرة الوجدان
إن لم تقيدها الحروف فإنها ... كالوحى ناطقة بكل لسان
أغنى الكلام عن المقاطع واللغى ... بث الحزين وفرحة الجذلان

وقد علق " مندور " فى كتابه " الشعر المصرى بعد شوقى " على هذه القصيدة بقوله :

(وبذلك تنتهى القصيدة التى أنقطع فيها نفس الشعر بعد الأبيات الثلاثة الأولى ، وضمر وحى الكروان حتى أصبح محصورا فى شخصية الشاعر ونبوغة فى غمرة النسيان والجهل الضارب حوله بجران ... الخ) .

ضاع الشعر إذن وأختنق من جديد بين جمود اللفظ وصرامة الأسلوب وبين تفاهة الموضوعات أو النفاق للسلطة وكبار رجالها ، وحتى أعظم القصائد التى كتبها رواد التجديد وأروعها نرى أنها تتسم بالجمود والجفاف العقلى وتسودها الروح التعليمية ، وقد يعتذر عنها أصحابها أنفسهم كما أعتذر " شكرى " عن قصيدته " البعث " أو كما فعل " العقاد " فى " ترجمة شيطان " التى علق عليها " مندور " بقولة

(بعد أن دعانا الشاعر إلى أن نسمع أعاجيب العبر أخذ يقص تلك الأعاجيب فى مائة مقطوعة وعشر ، كل مقطوعة من بيتين متحدى القافية ، فى شعر جهام يعوزه الماء والرواء ، بل التعبير والإيضاح) .

وباختناق الشعر على أيدى رواد التجديد بعد شوقى ، ظل الشعر جثة يحملها أصحابها ويرتادون بها الصالونات والأندية الثقافية ويتجادلون حولها ويتصارعون على السيادة عليها فى الصحف ، وهم أبعد ما يكونون عن الناس والمجتمع وقضاياه .

ولم ينزل الشعر من السماء إلى الأرض ، ولم تعد إليه الحياة بحق إلا عندما خلع ثياب الفصحى ارتدى ثياب العامية ، لغة الناس اليومية ولسان حال الحياة الواقعية المتملية .

وقد ظل شعر العامية من الفنون المنبوذة ، وقد حمل عليه " شوقى " حملة شعواء ، إلى أن قدر " لبيرم التونسى " أن يحرز قصب السبق فى الريادة المطلقة لهذا الفن وأن يحقق بانتصاراته المتوالية ما لم يستطع أحد من شعراء الفصحى أن يحققة من تواصل مع الجماهير، وبذلك حصل "بيرم" على لقب شاعر الشعب وأمير شعراء العامية .

والمتأمل لشعر "بيرم" يجده قد تخلص من عيوب شعر الفصحى ، مثل : (جمود اللغة ، وجهامة الموضوع ، وصرامة الأسلوب ، وتفاهة الموضوعات) .

بل نجد أن الفن الشعرى عند " بيرم " قد اتضحت معالمه ، وتحددت أهدافه نهائيا بالانحياز إلى صفوف الجماهير الكادحة ، فالفن عند " بيرم " يرتبط بالنقد الاجتماعى والسياسى الهادف .

ولذلك كانت أغلب قصائد وأزجال " بيرم التونسى " فى الحقيقة تتكئ على محور النقد الاجتماعى .

وتقدم صورا ساخرة ناقدة للحياة الاجتماعية وسلوك الناس وأخلاقهم وأسباب تخلف مجتمعهم وفى مقدمة هذه الأسباب :

(الجهل والفقر) .

والواقع إن " بيرم " لم يترك ظاهـرة اجتماعية من الظواهر لم يصورها أو يرصـدهـا وينقـدهـا بسخـريـة لاذعـة ، فقـد تناول " بيـرم " كافـة جوانب الحياة وظواهرها .

فتحدث فى (السـياسـة والفن ، والمجتمع ، والاقتصـاد ، والدين والتقاليد والعادات ، والمرأة وأحوالها ... الخ) .

وتناول شعر " بيرم " مختلف الطبقات الاجتماعية ، ومختلف الطوائف التى تعج بها الحياة المصرية وصور حياة أصحابها وأعمالهم وحرفهم وأحوالهم فى مختلف تقلباتها صعودا وهبوطا .

ومع ذلك ..

لم يقتصر فن "بيرم التونسى" على الشعر، أو الزجل، إنما هو يتجاوز ذلك إلى الكتابة النثرية، والمقال، والمذكرات، والمقامات والأوبريت، والأغنية.

فقد كتب " بيرم التونسى " العديد من الأغنيات ، وكانت صداقته لموسيقار الشعب " سيد درويش " من أهم أسباب نجاحه وشهرته إذ كتب "بيرم" "لسيد درويش" عدة أغنيات وشاركه فى بعض أعماله المسرحية .

فكانت العلاقة بينهما مثمرة فنيا بقدر ما كانت حميمة جدا على المستوى الإنسانى . ولقد تأثر " بيرم " " بسيد درويش "تأثرا عظيما، وتأثر به "سيد" بنفس الدرجة .

لذلك يجب أن نتعرض لهذه العلاقة وثمارها بالشكل المناسب لمدى تأثيرها فى حياة كل منهما .

كما يجب أن نتعرض لمختلف الجوانب التى تعرض لها " بيرم التونسى " فى أعماله سواء كانت فى الفن أو الحب أو السياسة أو النقد الاجتماعى أو عن المرأة ..

وغير ذلك من موضوعات أشعاره وأزجاله الرائعة الخالدة .

وسوف نبدأ بعلاقة "بيرم التونسي" "بسيد درويش" نظرا لمكانه " سيد " عند " بيرم " ، تلك المكانة التي عبر عنها " بيرم " بقولة :

السيد اللي لو ضرب الجن يسحرها الطرب
والترك تفهم والعرب اللي يقول على الطبول

والبنت ترقص والولد

السيد اللي في الغرام اهتز له أحسن قوام
وزاد مقام على مقام أما بكى وأما اشتكى

من هجر محبوبة رعد

السيد اللي فات لنا كنوز تعيش مليون سنة
فيها المسرات والهنا لو تنسحب أو تتنهب

ما تنتهيش إلى الأبد

لقاء العمالقة
(بيرم التونسى وسيد درويش)

حكى "عبد الفتاح غنبى" قصة لقاء (بيرم التونسى وسيد درويش) فى إصدارة ثقافية عن الذكرى المئوية لميلاد "سيد درويش" فقال فى مقاله: (كانت أحب الأحاديث إلى نفس " بيرم " هى التى تدور حول " سيد درويش " فقد قال " بيرم " : لقد عرفته قبل أن أراه .. عرفته من بعض الفقهاء (المكفوفين) الذين كانو يتابعون ألحانه وأغانيه ويرددونها كل ليلة فى المقهى الملاصق لمسجد أبى العباس المرسى فى الإسكندرية سنة ١٩١٣ .

كانوا يتذاكرون أغانى " سيد درويش " ويستخرجون ما فيها من براعة فنية معجزة .. كان أحدهم يقول متباهيا أنه ربط الدور الجديد " عواطفك دى أشهر من نار " وشرع فى الغناء إلى أن يقول :

يمكنى دايما أراضيك ..... والعازل ما يكونش شريك

فيسكته زميله قائلا له :

(مش كده يا سيدنا الشيخ.... سلطن " الصبا " ع " النوا ") وتقوم بينهما المشادة والمكابدة حتى يستقرا على الصواب .

لقد ألف " بيرم " الجلوس فى هذا المقهى ليستمع إلى الفقهاء (هواة الطرب) وهم يترنمون بألحان " سيد درويش " وأغانيه .. وذات ليله دخل أحد هؤلاء المشايخ إلى المقهى وهو يصيح :

أنا جايب لكم خبر .. إنما اية ، الشيخ " سيد درويش " سهران فى فرح الليلة فى باب سدرة .

ومضى المشايخ جميعهم إلى باب سدرة ، وخلفهم " بيرم التونسى " ، وقطع الجميع أربعة كيلو مترات فى البرد القارس وتحت المطر ليستمعوا إلى الشيخ " سيد " وهو يغنى .. وجلس الفقهاء وبينهم " بيرم التونسى " .. وغنى " سيد درويش " فى تلك الليلة فأطرب الجميع حتى الفجر .. ثم انفض السامر ، وانصرف الجميع مع مطلع النور ، إلا " بيرم التونسى " الذى ذهب للقاء ذلك الإنسان الذى أحبة من قبل أن يراه .

وبعد ربع قرن من الزمان يتحدث " بيرم " عن هذا اللقاء ..

فيقول :

(كم يصعب على المرء أن يفسر .. بل وحتى أن يدرك المعنى الحقيقى لبعض ما حدث .. والحقيقة أنه لم يحدث شئ فكل ما فى الأمر .. أننا نظرنا عن قرب فى عيون بعض .. ولكن كم كان فى تلك النظرة التى تبادلناها من معان .. لقد أحسست كأنما تفجر فى روحى شئ .. كان عودا من صواريخ الأطفال قد اشتعل متألقا بهيجا متعاليا منتشيا .. وما شككت فى أنه قد أحس ما أحسست .. ورحنا ننظر لبعض فى دهشة وسعادة .. إن مثل هذا الإحساس لا يمكن إلا أن يكون متبادلا .. لقد أحسسنا بأننا عرفنا بعضنا معرفة وثيقة منذ عهد طويل .. وكم كنت فى حاجة شديدة لأن أعرفه .. وأراه ، وسرنا معا فى الطريق الطويل المملوء بالصخور والعقبات والأشواك وعشنا سويا بضع سنين كانت أحلى السنين فى حياتى)

ونفى " بيرم " بعد ذلك إلى تونس بحجة أنه يثير الشغب ، وفى تونس قالت السلطات الفرنسية عنه : أنه يشير الثورة فى المستعمرات . ولهذا ينبغى أن يخرج من تونس فوراً . وأرسلوه إلى باريس ، وهناك أحس " بيرم " كأنما قد مات كل شئ فى داخلة . وحاول أن يجد لنفسه عملاً فى " ليون " لكنه لم يجد لأن العمل هناك قاصرا على الفرنسين وحدهم ، وبعد شهور من الجوع والتشرد والضياع .. وجد عملاً على ظهر إحدى البواخر التى تعمل فى البحر الأبيض المتوسط .

وتحركت الباخـرة إلى حيث لا يعرف " بيرم " .. ولماذا يعرف ؟ وماذا يعنيه من ذلك ؟ فقط كان عليه أن يقوم بأشق الأعمال وبعدها يقدمون إليه فتات موائدهم .. أليس جائعاً .. ومنفيا ومشرداً ؟

وواصلت الباخرة سيرها إلى حيث لا يعرف " بيرم " .. وتنقلت من شاطئ إلى أخر .. ثم اتجهت إلى ميناء الإسكندرية .. ولم يصدق " بيرم " نفسه .. وظن أنه يحلم أو ربما كثرة أشواقه إلى وطنه صورت له أنه على مقربة منه ..

وعندما وقفت الباخرة فى ميناء الإسكندرية .. وتأكد " بيرم " من أنه لم يكن يحلم .. وأنه حقيقة فى وطنه .. لم يتردد فى النزول خلسة . وركب فى أول قطار إلى القاهرة . وبعد ساعات وجد نفسه يسير فى شوارعها مرتديا ثياب شيخ مجذوب استخفه الطرب .

لم يحاول " بيرم " الذهاب إلى بيته . فهو يعلم تماما أن البوليس قد يكون فى انتظاره هناك ، خصوصا بعد أن نشرت إحدى الصحف (جريدة المقطم) انباء هروبه من الباخرة بالتفصيل . فهبط على صديقة " سيد درويش " الذى كان يقيم فى منزل فى حارة القبيلة بشارع " كلوت بك " .

وتلقاه الصديق الكبير بين أحضانه ، وآواه فى بيته ، وهيأ له جوه وعاش الصديقان العظيمان فى ود ومحبة وترابط .

واشتركا معا فى عمل كبير كان له أثر كبيرا جدا فى تطور المسرح الغنائى فى مصر .. وهو " شهرزاد " المسرحية الغنائية الخالدة التى كتبها "بيرم " وهو مختف فى بيت " سيد درويش " ، وكتب كذلك كثيراً من القصائد والمقامات والأزجال والقصص . كان ينشرها فى إحدى المجلات التى كان يراسلها وهو فى منفاه .

واستراح " بيرم " إلى حياته الجديدة بين أهلة وناسه وأحبابه .. ولكن هذه الحياة لم تعجب بعض المتأدبين فى مصر فأرشدوا البوليس عنه فقبض عليه وتسلمته السلطات التى قررت عودته إلى المنفى من جديد .

وودعه عند الرحيل كل أصحابه.. إلا "سيد درويش" الذى أذهلته الصدمة فعجز عن وداع صديقة. وعز على "بيرم" الا يودعه شقيق روحه، ولم يكد يستقر فى منفاه حتى قرر أن يبعث إليه رسالة يعاتبه فيها على تقصيره.

لكنه فوجئ بعدها بأيام بنعيه فى الصحف الآتية من القاهرة . فكتب فيه هذا الزجل :

من غيابك يوم وداعى

من غيابك يوم وداعى كنت بكتب لك عتاب
وأنت مخلص لى وداعى أنتظر منك جواب
شفت أسمك فى المناعى واللقاء يوم المعاد

***

لما حظى كان وجودك غَيبِّت حظى القبور
وأتمحى ميعاد صعودك والتجلى والسرور
وأنت يا سيد وعودك المصور فى الفؤاد

أنا أبكى لجل سنك   وأندب العمر الطويل
واسهر الليل لجل فنك   فى المعازى والعويل
وأسأل القيثارة عنك   ياللى أنطقت الجماد

***

إن خلت منك أماكن   فيها أسمع لك حنين
أنت جُوَّه القلب ساكن   استمع منى الأنين
لك فى قلبى دق لكن   دقة النار والزناد

***

مصر ما تميل والله بعدك   للحسينى والحجاز
والعراق من بعد بعدك   يتحرق راخر بجاز
أنت فى الفردوس لوحدك   والمصايب ع البلاد

***

أنا أن سالت دموعى   كمان مرادى أكون فداك
ولاّ هَبَّت نار ضلوعى   افتكر أوقات هواك
وافتكر ساعة رجوعى   لما أشوفك نارك رماد

***

ولم يكن هذا الزجل وحده هو كل ما كتبه "بيرم" فى رثاء "سيد درويش" فلقد كتب أيضا بعض أزجاله فى ذكراه وخصه ببعض القصائد قبل عودته إلى مصر وبعدها، فلم يعد "بيرم" إلى مصر إلا بعد وفاة "سيد درويش" بخمسة عشرة عاماً. لكنه لم ينس أبداً شقيق روحه ورفيق رحلته الذى قال فى ذكراه :

ذكرى سيد درويش

اتعـــد يومك واتحـــسب من مـــهـــرجـــانات الأدب
فـيـه القـصـايد والخطب تـرن لـك مـطـنـطـنـه

***

يومك مـــــخلد للأبد والناس عـيـشـيـتـهـا بالمدد
ربك خــالقــهم للهــدد وأنت خــالقك للبنا

***

والناس بتـبنى مـجـدها لكن لهـا ولنسلهـا
وأنت كنوزك كلهـا خلفـتـهـا لنا كلنا

***

يبنوا المناخر بالحـجـر ويـزولـوا هـمّ والأثـر
وضـربة منك ع الوتر على الزمـان مـتـسلطنه

***

كـنـا هَـمَـل بـيـن الأمم لومـا الهـرم والكام صنم
خلتنا ننطق بالنغم ونقـول لهم مـين زينا

***

ونقـول لهم ببـغـدة فى الفن مـصـر السـيـدة
ما يكونش أحسن من كده أنغـام وروح مـتـلحنه

***

آهات كتير سمعتها وانت عشقت وقلتها
آه ا م الفؤاد طلّعتها حَسّيتها من قلبى أنا

***

الجاحد اللى يجحدك معذور إذا كان يحسدك
ليه بس لما يقلدك يقول أنا رب الغنا

***

شوف محفلك لما انفتح بمغنتك أصبح فرح
وكان يدور فيه القدح لو كنت يا سيد هنا

***

(بيرم وأم كلثوم)

قلنا أن كوكب الشرق السيدة " **أم كلثوم** " هى المطربة التى غنت " **لبيرم** " أكثر أغانيه ، وأن أول أغنية غنتها " **أم كلثوم** " من تأليف " **بيرم التونسى** " كانت عام ١٩٤١ .

وعلى امتداد سنوات العلاقة بين العملاق " **بيرم التونسى** " والعملاقة "**أم كلثوم** " غنت " **أم كلثوم** " " **لبيرم** " حوالى ٣٢ أغنية أكثر من أشهر أغانيها، إلا أن هناك الكثير من الأغنيات التى كتبها " **بيرم** " " **لأم كلثوم** " والتى لا يعرفها الناس ، والواقع أن أغنيات " **بيرم لأم كلثوم** " كانت تتسم بالثراء والتنوع والتجديد فمنها الأغنيات الوطنية ، والأغنية الدينية ، والأغنية العاطفية ، وأغنيات الأفلام .

الأغنية العاطفية :

من أشهر الأغنيات العاطفية التى شدت بها كوكب الشرق " **لبيرم التونسى** " ، أغنية " **كل الأحبة** " وبدايتها على النحو التالى :

كل الأحـبـة إتنين إتنين وأنت يا قلبى حبيبك فين
يطلع على البدر جميل يا بدر مالى أنا ومالك
ما ليش يا بدر نديم وخليل أورية ويورينى جمالك
نورك يا بدر يزيد وتبقى ليله عيد
ليله ما تطلع على إلفين إتنين إتنين

وأنت يا قلبى حبيبك فين

وكانت هذه الأغنية هى الأغنية الثانية التى كتبها " بيرم لأم كلثوم " ، أما الأغنية الأولى فقد كانت بعنوان " أنا وانت " .. وكان مطلعها :-

أنا وانت أنا وانت
كل من يعشق يا عذابه فى الهوى ترميه مقاديره
وإن قضى المكتوب ولا نابه غير عذاب يخطر فى ضميره
صبح وبات متألم شاكى وبيات ويصبح حيران باكى
واللى نال عهده والزمان ساعده وأنكبت سعده

أنا وانت

وقد قام " زكريا أحمد " بتلحين الأغنية الأولى والثانية ، وبعد ذلك تواصلت أغنيات " أم كلثوم " وتوالت بعد أن حققت لها كلمات " بيرم " الكثير من النجاح والإقبال ، ثم غنت " أم كلثوم " بعد ذلك أغنية " الآهات " التى قال " بيرم " فيها :-

آه من لقـــاك فى أول يوم ..... ونظرتـــك لى بعنيك

خاصم عيونى ليليتها النوم ..... وبت أسال روحى عليك

ثم كتب " بيرم " أغنية " حلم " وغنتها " أم كلثوم " فحققت نفس النجاح والإقبال ، وفيها يقول :-

حـــبـــيـب قلبى وفــــانى فى مـــيـــعـــاده

ونـوّل بعـــــد مـــــا طـول فـى بعــــــاده

حـــــــبـــــــيـب قـــلـبـى

قـــــابلنى وهـوّه مـــتــــبــسّم

وطـــمـــنّـــى عـــلـــى وصـــلـــه

وقــــــال لى بعــــــد مـــــا سلم

كـــــــلام القـلـب يـرقـص لـــه

وكتب " بيرم لأم كلثوم " أيضا أغنية " أنا فى أنتظارك " وهى من أشهر أغنياته التى يقول فيها :-

أنا فى انتظارك خليت ..... نارى فى ضلوعى وحطيت

إيدى على خدى وعديت ..... بالثانية غيابـــك ولا جيت

يا ريتنى عـــمـــرى مــــا حـــبـــيت

وكتب " بيرم لأم كلثوم " أيضا رائعته " أهل الهوى " التى وصف فيها الحب وأحوال أهلة فقال :-

أهل الهــوى يا ليل فــاتوا مـضـاجـعـهـم

واتجـمـعـوا يا ليل صـحـبـة وأنا مـعـهـم

يطولوك يا ليل
ويقصّروك يل ليل
يطولوك يا ليل من اللى بيهم
وأنت يا ليل بس اللى عالم بيهم
فيهم كسير القلب والمتألم
واللى كتم شكواه ولم يتكلم
واللى قعد بعد الحبيب وحده
وبات حزين يشكى هيامه ووجده
يشكوا ولا مخلوق سمع شكواهم
إلا الكواكب فى السما سمعاهم
يطولوك يا ليل بالسهد والأفكار
والشمس بعد الليل تطلع عليهم نار
وبعد طول الويل
تعود لهم يا ليل
ويقصّروك يا ليل فى صحبة هنيه
على وتر رنان للصبحيه
فيهم يا ليل خل عطف على خله
يقوله لحسن الشوق وخله يقول له
ويقصروك يا ليل على هنا وسرور
والشمس بعد الليل تطلع عليهم نور
ويسألوك يا ليل أمتى تعود يا ليل

من الأغنيات الشهيرة التي غنتها " أم كلثوم " أيضا من كلمات " بيرم التونسي " أغنية " شمس الأصيل " التي وصف " بيرم " فيها لقاء الأحباب على شاطئ النيل في لحظات الأصيل بأبيات رائعة قال فيها :-

شمس الأصيل دهبت خوص النخيل يا نيل
تحفه ومتصوره في صفحتك يا جميل
والناي على الشط غنى والقدود بتميل
على هبوب الهوا لما يمر عليل

***

يا نيل أنا واللى أحبه نشبهك في صفاك
لنت ورقت قلوبنا لما رق هواك
وصفونا في المحبة هوّ هوّ صفاك
ما لناش لا احنا ولا انت في الحلاوة مثيل

***

ويصف " بيرم " نشوة الحب بين الأحباب على شاطئ النيل في نفس الأغنية فيقول :-

أنا وحبيبي يا نيل غايبين عن الوجدان
يطلع علينا القمر ويغيب كأنه ما كان
بايتين حوالينا نسمع ضحكة الكروان
على سواقي بتنعي ع اللي حظه قليل

يا نيل

أما أمتع الأغنيات العاطفية التى شدت بها كوكب الشرق ومازالت تجد الرواج والقبول العظيم من الجماهير فى الأغنية التى كتبها " بيرم " بعنوان "الحب كده " ويقول فيها :-

حبيبى لما يوعدنى
تبات الدنيا ضحكالى
ولما وصله يسعدنى
بافكر ف اللى يجرالى
ينسّينى الوجود كله
ولا يخطر على بالى
ولما طبعه يتغيّر
وقلبى يبقى متحيّر
مع الأفكار بات فى
نار وفى حيرة تبكينى
وبعد الليل يجينا النور
وبعد الغيم ربيع وزهور
أهو من ..... ده
وده ..... الحب كده

الأغنية الدينية

أما أشهر كلمات " بيرم التونسى " وأغنياته الدينية فهى أغنية " القلب يعشق كل جميل " والتى غنتها " أم كلثوم " وحققت نجاحا عظيما .. ويقول "بيرم " فيها :-

مكة وفيها جبال النور
طالّه على البيت المعمور
دخلنا باب السلام
غمر قلوبنا السلام
بعفو رب غفور
فوقنا حمام الحمى
عدد نجوم السما
طاير علينا يطوف
ألوف تتابع ألوف
طاير يهنّى الضيوف
بالعفو والمرحمة
واللى نظم سيره
واحد مافيش غيره
دعانى لبيته
لحد باب بيته
واما تجلى لى
بالدمع ناجيته

الأغنية الوطنية

وبالإضافة إلى الأغنية العاطفية والأغنية الدينية كتب " بيرم التونسى " العديد من الأغنيات الوطنية التى تغنت بها " أم كلثوم " فى الكثير من المناسبات الوطنية والأعياد القومية ، ومنها أغنية " صوت السلام " والتى يقول " بيرم " فيها :-

صوت السلام هو اللى ساد واللى حكم
على الدخيل اللى اندحر واللى انهزم
عدونا لما اعتدى ، قدمنا أرواحنا فدى
وأتعجبت من بأسنا .. كل الأمم
ثلاث أمم يا بورسعيد متقدمة بدبابات
وطيارات تملا السما
الأوله داخلة البلاد مستعمرة
والتانية بعد الأنكسار متجبرة
هدموا البيوت .. قتلوا النفوس إنما
احنا هدمنا عزمهم
فى الشرق كله ومجدهم
تلات دول جايبه العتاد لكنهم
متقدموش من بورسعيد ولا قدم

وكانت هذه الأغنية هى أول الأغنيات الوطنية التى كتبها " بيرم لأم كلثوم " وغنتها بعد العدوان الثلاثى ، أما الأغنية الثانية فكتبها " بيرم "

وغنتها " أم كلثوم " بعد ثورة ٢٣ يوليو ويقول " بيرم " فيها :-

بعد الصبر ما طال
نطق الشرق وقال
حققنا الآمال
برياستك يا جمال

وغنت " أم كلثوم " للثورة أيضا أغنية من كلمات " بيرم " قالت فيها :-

يا جمال يا مثال الوطنية
أجمل أعيادنا المصرية
بنجاتك يوم المنشية
رددوا علي ....

ومن الأغنيات الوطنية الشهيرة التى غنتها " أم كلثوم " فى أعياد الثورة أغنية كتبها " بيرم " بعنوان " فرحة الوادى " وقال فيها

فى عيد الوادى البسام ..... الفرحة هزت أعلام
والنيل اترنم أنغام ..... يا سلام على عيدنا يا سلام

أغانى الأفلام :

أما الأغنيات التى كتبها " بيرم " وتغنت بها " أم كلثوم " فى أفلامهما فهى كثيرة وشهيرة لأنها من الأغنيات التى أحبها الناس ورددتها الجماهير ومنها أغنيات مثل : (عينى أنا عينى ، سلام الله ، نور محياك ، ظلمونى الناس) وغيرها من الأغنيات التى كتبها " بيرم " بلهجة قريبة من اللهجة البدوية مثل الأغنية التى يقول فيها :-

غنى لى شوى شوى غنى لى وخد عينى
خلينى أقول ألحان تتمايل لها السامعين
وترفرف لها الأغصان والنرجس مع الياسمين
وتسافر بهـ ا "ركبان طاويين البوادى طى
شوى شوى غنى لى وخد عينى

كما غنت " أم كلثوم " أغنيات " لبيرم " فى أفلام متعددة ومنها أغنية (يا صباح الخير ، فرحة هنيه) ومن أشهر أغنياته التى قدمتها " أم كلثوم " فى حفلاتها أغنية " هو صحيح الهوى غلاب " .

وفى كل هذه الأغنيات كان " بيرم التونسى " مجدداً مبدعاً ، وقد جسد فى أغنياته كل أفكاره الثورية التى نادى بها فى أزجاله وأشعاره التى ضمنها ثورته النقدية على الفن وأهلة .

لكن على الرغم من أن " بيرم " وجد فى الأغنية أداة لتوصيل أفكاره عبر صوت " أم كلثوم " وغيرها من عباقرة الغناء وأساطين الطرب فى مصر إلا أنه لم يتوقف عن كتابه الزجل والشعر والمقامات والأوبريت والمسرحية .

لأن الفن عند " بيرم " لم يكن مجرد وسيلة للأرتزاق أو حرفه للتكسب إنما كان بالدرجة الأولى رسالة إنسانية ذات أهداف اجتماعية وسياسية إصلاحية ، وكان لهذه الرسالة جوانبها الأخلاقية أيضا ، لذلك نجد أن شعر " بيرم " وأزجاله لا تقتصر على تناول ناحية واحدة من جوانب الحياة بل هى تتناول كافة تفاصيل الواقع وشتى جوانبه .

فالرؤية الفنية والإبداعية عند " بيرم التونسى " تتسع لكى تشتمل الحياة بأكملها لأنها رؤية تستند إلى فلسفة متكاملة الجوانب والأركان .

وما كتبه "بيرم" طوال حياته يعبر عن هذه الفلسفة ويعكس هذه الرؤية.

(بيرم والفن)

ليس من شك فى أن اللغة الشعرية لغة خاصة جداً .

وإذا حاول الشعراء جعل هذه اللغة الخاصة لغة شعبية .

أى إذا هم حاولوا النزول بالشعر من السماء ليصبح لغة للناس ، يعبر عنهم ويتواصل معهم ويتبع من واقعهم . فانهم يواجهون عندئذ أصعب المكابدات ، ويطلبون تحقيق المعادلة المستحيلة التى لم ينجح إلا قلة من أهل الإبداع فى تحقيقها .

و " بيرم التونسى " هو من هذه القلة التى أمكنها تحقيق هذه المعادلة الصعبة .

بل هو الرائد الأول للتجارب الثورية التى أنزلت الفن من برجه العاجى ، إلى أرض الواقع ، وأوصلت شرايينه بالشعب ليصبح المجتمع هو النبع الذى يستمد منه الفن حياته ، وهكذا تحول الفن عند " بيرم " إلى نبضات حيه للجماهير وقضاياها .

وأصبح على فن الصالونات ، والفن المأجور ..

أن ينــزوى ...

ويفسح المجال لفن الشعب ، ولذلك كان هجوم " **أحمد شوقى** " أمير شعراء الفصحى على " **بيرم التونسى** " بدافع الخوف من الثورة الإبداعية التى قادها " **بيرم** " لصالح الشعب وطبقاته المختلفة ، وعندما قال " **شوقى** " (لا أخشى على العربية إلا من " بيرم التونسى " فقد كان يعبر عن خوف أدباء وشعراء الأرستقراطية والطبقات العليا فى المجتمع من المد الثورى الذى يمثله الشعر العامى بريادة " بيرم التونسى ") .

لم تكن المسألة مجرد مسألة "لغة"، الفصحى أو العامية، ولم تكن المشكلة مشكلة الشكل الشعرى إنما هى مشكلة الانحياز، هل يجب على الشاعر أن ينحاز إلى القصر والأرستقراطية أم إلى الشعب والطبقات الكادحة ؟ .

وقد كان " **شوقى** " هو شاعر القصر الذى منحة لقب " **أمير الشعراء** " ، أما " **بيرم** " فقد أختار صف الشعب ..

والشعب هو الذى منحه لقب (" **أمير شعراء العامية** " ، " **شاعر الشعب** " ، " **النبع الخالد** ") وغير ذلك من الألقاب التى لم تمنح لشاعر قبله ولا بعده ، وما ذلك إلا لأن " **بيرم** " كان يحيا مع الشعب فى قلب الشارع ، ويلتحم بقضايا الناس وهموم الوطن ويعبر عن نبض الجماهير ومشاكلهم التى عاشها بنفسه وعانها مثلهم ..

فى حين أن الشعراء الذين انحازوا إلى الطبقات العليا والأرستقراطية كانوا يعيشون فى الأبراج العاجية والصالونات الأدبية ويتعلقون بأذيال السلطة التى حولتهم إلى مجرد أبواق لتمجيد السلطان أو الملك .

فهم شعراء وأدباء السلطة ، وأكثرهم ينتهى أمره ويندثر ذكره بتغير العصور والحكومات ..

أما أدباء وشعراء الشعب فآثارهم باق وذكرهم يخلدها الدهر ، وليس أدل على ذلك من أننا نذكر " بيرم " فى كل مناسبة ، وإن مكانه " بيرم " وقيمته قد طغت على مكانه وقيمة عشرات من الأدباء والشعراء الذين أصبح ذكراهم فى طى النسيان أو الذين لا نذكرهم إلا فيما ندر .

ولأن " بيرم " هو أعظم الشعراء الذين ربطوا بين الفن والواقع ، فقد كانت مكانته الأدبية عظيمة وقامته عالية ، كقامة الرواد العباقرة الذين عركوا الحياة وعركتهم وغاصوا فيها حتى سبروا غورها ، وهؤلاء هم أقدر الناس على التعبير بلغة حية عن كل جوانب الحياة .. وخاصة الجانب الاجتماعى .

وقد تناول " بيرم " هذا الجانب بأسلوبه الخاص المتميز فأضفى عليه الكثير من سمات شخصيته الإبداعية ورؤيته الفنية ..

وقد تفاوت المدى الموضوعى فى تناول المجتمع عند " بيرم " من الرصد إلى التصوير ، لكن حتى تتفاوت درجاته عند " بيرم " وتتنوع أساليبه وأشكاله فهو عندما يصور المجتمع بكل تفاصيله لا يقف عند حدود التصوير بل يتجاوزه إلى النقد فى أسلوب مرح ، ساخر يؤكد لنا أن " بيرم " أقدر من سواه على تطويع اللغة الشعبية ومفرداتها لخدمة الموضوع ، " فلبيرم " فى الفن فلسفة يعبر عنها على النحو التالى :-

الفنـــان

تمر الليالى عليه فى شجون   يلحن ، ويرسم ، ويبـدع فنون

يمتع مسامع ويعجب عيون   ولا أجر يقبض ولا يحزنون

***

يجى له الخواجة ميشيل البيطار يغنيه كُبيبه وصحنين خُضار
ويأخذ تنازل بكل إقتدار عن الحق كله ، ليوم يبعثون

***

ويبقى الإيراد للخواجة ميشيل وابنه حكود ولاّ بنته إيديل
يحلُّوا مَحَلّ اللى ألّف عَطيل وهُمّ اللى واجب يخشُّوا السجون

***

أيا برلمان الشباب والشيوخ يا مكسى قطيفة وغرقان فى جوخ
حرام المؤلف ده مصباح ظلام يسير فى الطليعة أمام الأنام

***

ولو كان يا نُوّاب بلدنا الخصيب بينالتكم مُلّحن نغم أو أديب
لكان فى نواصى الشوارع خطيب يطالب لأهل الفنون بالقانون

***

على أن مشكلة الفن عند " بيرم " ليست مجرد مشكلة ذاتية أو فردية ، ولا هى مشكلة مادية .

وإنما هى مشكلة " قيمة " فالمجتمع إذا نظر إلى الفن من منظور القيمة لكان للفنان فى المجتمع مكانه تدل على تقدير المجتمع واحترامه للفن ورسالته ودوره .

لكن " بيرم " يرصد حالة الفنى فى المجتمع من خلال أوضاع الفنان ، ولا يفصل " بيرم " بين حالة الفن وحالة المجتمع فالمجتمع المتقدم هو المجتمع الذى تقدم فيه الفن ويحيا فيه الفنان حياة كريمة بحيث يستطيع أن يقوم بدوره ويؤدى رسالته ..

أما المجتمع المتخلف الذى تتفشى فيه أمراض الجهل والتخلف ويتحكم فيه الاستعمار من جهة والرجعية من جهة أخرى فهو المجتمع الذى لا يحفل بالفن ولا يقدر الفنان ، بل هو المجتمع الذى ينظر إلى الفنان باحتقار لشخصه ومهنته ودوره ، ومع ذلك لا يستنكر الناس فى مثل هذا المجتمع أن يستمتعوا بالفن ويعمل الفنان على سبيل اللهو والتسلية لا غير .

وهكذا يتم إجهاض دور الفن ، ويتحول تجار الفن بالفن إلى محاولات إرضاء الجمهور والنزول بمستوى الفن إلى الذوق الهابط ، وعن هذه الحالة يعبر " بيرم " فى قصيدة " الفن مين ينصفه " فيقول :-

الفن مين ينصفه

الفن مين ينصفه الله يعرفهُ
ويعرف اللى يألفه لولاد عرب !

***

(فؤاد) يلّم اللى اشتهوا واتدلّهوا
أنثى وذكر ، يتاوّهوا من الطرب

***

وبعدما ياخدوا الكِفَا يعطوا القفا
غرفة طبيخ من مغرفة من الخشب

***

وكل ليلة فرفشة واللى نشا
بايت أكيد من غير عشا إيه السبب ؟

سايباه يا سيدى أمته ودولته
للمش مَصّ جتته مَصّ القصب

***

شوف لك يا متفنن عمل غير ده العمل
تكسب كتير لو تشتغل فِقِى طُرَبْ

***

وهكذا أخذ " بيرم " على عاتقة مهمة الدفاع عن الفن .

لكنه فى الوقت نفسه كان فى غاية الحرص على التعبير عن رأيه فى الفن، وتجسيد رؤيته وفلسفته لدور الفن ورسالته ، ولتوضيح هذه الرؤية استخدم "بيرم" (النقد) فى بيان رأيه، فهو حين يدافع عن الفنان وعن الفن لا يدافع عن الفن المنحط ، ولا الفن التجارى ، ولا فن اللهو والتسلية ، ولا الفن الذى ينطوى على إبداع ، ولا يمضى إلى غايه تنتهى إلى النقد والإصلاح .

ولذلك كان على " بيرم " أن يحمل معولة وأن يهدم بكل قوة أوثان الفن فى عصرة .

فراح يكتب القصائد والأزجال فى نقد الفن وأهل الفن المنحط فى نفس الوقت الذى كان يدافع فيه عن الفن الحقيقى الذى يرتقى بالناس ويتقدم بالأمة ويهدف إلى إصلاح المجتمع .

وفى معرض تصوير " بيرم " لحالة الفن ونقده للفن كتب " بيرم " قصيدة " **الفن فى الشرق** " ويعدها قصيدتة الرائعة " **يا أهل المغنى دماغنا وجعنا** " وغيرها من القصائد التى توضح رؤيته وفلسفته فى الفن ، فهو يقول مثلا فى قصيدة " **الفن فى الشرق** " :-

الفن فى الشرق

الفن فى الشرق منه قلبنا ممغوص
من كتر ما بيجلب الأوخام والأوجاع
أصبح هلاهيل لابسها مُدَّعى ، بلبوص
على المسارح ، وع الشاشة ، وفى المنياع

***

من كل تيجان ملوك الفن فيها فصوص
اللى سرقها اشتهر ، واللى بَدَعها ضاع
على المسارح تروح تسمع كلام مرصوص
عن الحكم والمواعظ ... سقفوا يا رعاع

***

والفيلم توليف مَعَلِّم من حتت مقصوص
والريح رقصات ، وتنكيت الثلاث أرباع !!
أما النكت ماركة اشمعنى ! وفن البوص
تقول لها العريجيه والجمايه .. هاع

***

وفى الأذاعة اللى يطربنا ، جدع مفعوص
ما عرف لو كان بيطرب والاّ بيقول ماع !
مناصرة الفن مين فيهم ماهوش مقروص

فى العــرض ، والمال ، والأخــلاق ، والأوضـــاع

***

لهم فى جلب المشـاكل تكتـيكات مـخـصـوص

عـيب ينذكـر فى الجـرايد ، والورق مـا يسـاع

ومـبـدع الفن فى وسط المناصـرة يلوص

ويسكنوه بالحـيـا ، تربه فى سـابع قـاع

لو كنت يا فن مـجـعـول لك قـانون ونصـوص

لكنت ذى الكواكب فى السـمـا لمأع

***

ثم ينقد أهل الغناء بشدة ، ويوضح أسباب هذا النقد ، لكن بأسلوب نقدى ساخر ولغة مرنه سلسلة جعلت الناس يحفظون هذه القصيدة عن ظهر قلب ويتغنون بها إلى يومنا وهى قصيدته الرائعة التى كتبها بعنوان " يا أهل المغنى دماغنا وجعنا " ويقول فيها :-

يا أهل المغنى دماغنا وجعنا

يا هل المغنى دمـاغنا وجـعنا دقـيـقـة سكوت لله

داحنا شبعنا كلام مـاله معنى يا ليل ويا عين ويا آه

***

طلعت مـوضـة غصـون وبلابل شـابط فيهـا حـزين

شـاكى وباكى وقـال مـش عـارف يشكى ويبكى لمين

واللى جابت له الداء والكافيه ، طارشة ما هيش سامعاه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

***

ردى عليه يا طيور بينادى ، وارمى له الجناحين
وانت كمان يا بابور الوادى ، قل له رايح على فين
قل له أيالك يرتاح يا بابور ، ويريحنا معاه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

***

كل جدع فرحان بشبابه يقول فى عينه دموع
يا اللى جلبتى شقاه وعذابه ، حلّى لنا الموضوع
طالع نازل يلقى عوازل ، واقفه بتستناه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

***

حاقضين عشره اتاشر كلمة ، نقل من الجورنال
شوق وحنين وأمل وأمانى وصوتيه ودلال
واللى اتعاد يتزاد يا خونا وليل ونهار هوّاه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

***

وإذا كان " بيرم " قد تناول بالنقد الغناء ودافع عن الفن وأهل الفن ، فانه لم ينس الأدباء الذين يتعلقون بأزيال السلطة ، أو مؤسساتها ، فهؤلاء فى نظر " بيرم " ليسوا سوى أدعياء ، لأن الفن يرتبط بالحرية ولا يمكن أن يتحول إلى وظيفة رسمية ، وإذا تحول الفنان إلى موظف رسمى فانه لن يبدع أبداً بل سيتحول إلى بوق من أبواق السلطة التى تدفع له راتبه الشهرى ، وفى قصيدة بعنوان " أديب ميرى " يوضح " بيرم التونسى " موقفه من أمثال هؤلاء الأدباء الأدعياء ويشهر بهم ويفضحهم بأسلوبه الساخر اللاذع كما هى العادة فنراه يقول :-

أديب ميـرى

من قـبـل مـا يوظفـوه عـرف لسـان العـرب
وشئ عن البحـتـرى وكـام كـتـاب منتـخب

***

أصـبـح أديب مـشـهـور لـه فى التـصـانيف درر
وبعـد مـا وظفـوه أصـبـح قليل الأدب !

***

يقـعـد على مكتـبـه عـارف مـقـام منصـبـه
ووجـهـه ده يقلبـه قـالبـه صـحـاب العِـزّب

***

يلعن فى خـاش السـعـاه اللى مـا ودوش عـشـاه
أمـا التليـفـون هواه بالدّق من غـيـر سـبـب

وام القـــوام ســـمـــهـــرى لـهــــــــا الـكـــلام الـطّرى
ويخش لـه العــبـــقـــرى يســـتـــقـــبلة بـالـغـــضب
***
هجــــاص وبيـــاع كـــلام عـــمـل رفـــيـع المقـــــام
يقـــبـض مُـــرتّب حـــرام من جـــيـب بتـــوع العنب

***

وإذا أردنا أن نوضح فلسفة " بيرم " فى الفن أكثر فعلينا أن نقول أن "بيرم " كان يعتقد مؤمنا إن رسالة الفن الأولى هى التغيير والإصلاح والتربية، لذلك كتب " بيرم " ما يوضح هذه الرؤية من خلال نقده للفن الفاسد أو غير الحقيقى وغير الكامل . فالأمة فى نظر " بيرم " إذا كانت متخلفة كما قلنا فأن إنتاجها الفنى سيكون فى نفس مستوى تخلفها أى انه سوف يعكس أحوال الأمة المتردية فى كل شئ .

والعكس صحيح أيضا ، إى إذا كان الفن قد أنحرف عن رسالته ودوره الحقيقى الذى ينبغى له القيام به فأنه لن يكون له أى أثر فى حياة الشعب ولا أى دور فى ترقية الأمة ، فالفن الحقيقى فى نظر " بيرم " هو الفن المؤثر ، والفن المؤثر هو الذى يقوم بدوره فى التغيير ويدعوا إلى الإصلاح عن طريق النقد ، فالنقد يجب أن يقوم بدوره الفعال فى هدم كل ما هو فاسد وتغيير كل ما هو عتيق أو متخلف أو أسطورى خرافى ، أى يجب أن يقوم بدوره فى تربية الأجيال الجديدة وتنوير أذهان الأجيال القديمة .

وقد ظل هذا المبدأ هو محور إبداع " بيرم " إلى آخر أيامه ، وإن اضطرتة الظروف أحيانا إلى كتابة بعض الأغنيات التى لا تعكس هذا المبدأ ، فهذا استثناء فرضته الظروف .

أما القاعدة فهى أن يقوم الفن بدوره فى الإصلاح وإلا فإنه سـ يعكس حالة التخلف الاجتماعى كما صورها " بيرم " على النحو التالى :-

ربع المقـــام .. مـــاركـــة : ســـمع هس
ربـع المقـــام اللـى واصـل لـك من المنيـاع
مـاركـة ســمع هُس يا عــالم وهُسّ .. ســمــاع
ربع المقــام اللى بيــه بيـجــعــجـع الجــعـجــاع
خلـى رجــــال المشــــارق كلـهـم أربـاع !

***

من ربع فــلاح فى أرضــة ســاحت الأنهـــار
ومن ســمـــاه كل ســاعـــة تهطل .. الأمطار
ربع المقـــام البليـــد خـــلاّه وقف مــحـــتـــار
فى أرض خصبـه ، وخلىّ اللى عليها .. جياع !

***

وربع دكــتـــور بيــتــمـــتع بصــويت وهادور
فى أرض بين الأراضى حسنهــا مــشـــهـــور
الشــمس تطلع عليــهــا والهـــوا والنور
وأهلهــا عن آخـــرهـم كلهم أوجـــاع !

***

وريع مـسلم بيـقـبض ع الصـلا بقـشيش

أو أسمه مسلم وغارق فى خمور وحشيش

أو يرخى دقنه ومش عاوز خلافه يعيش

أو يبقى سيد وكل المسلمين أتباع !

***

ومن الواضح أن " بيرم " كان ينظر دائما بعين الشاعر الناقد إلى كل ما حوله .

لهذا فهو يطلب الكمال، ويبحث عنه فلا يجده، فكل شئ حوله ناقص أو يدل على النقص والتخلف والتردى فى مختلف ميادين الحياة بدءا من الفن الذى تقدمه الإذاعة .. ومرورا بخطب الساسة والزعماء، إلى الفلاح غير المتمرد على أحواله السيئة، ثم الطبيب أو المتعلم ورجل الدين أو المتدين المنافق.

فها هنا يتناول " بيرم " عده شرائح من مختلف الطبقات وبعض الظواهر التى تتحد حول محور واحد هو " التخلف الاجتماعى " الذى يعكسه الفن أو الذى ينعكس من المجتمع على الفن .

ولذلك يؤكد " بيرم " على ضرورة قيام الفن بدور اجتماعى إصلاحى خاصة بعد الجلاء ، إذ يجب على الفن أن يقوم بدور طليعى ثورى يحض على البناء والتشييد والتعمير وعدم التمادى فى حالة الشعور بالانكسار القوى التى ساندت أيام الاستعمار . وهو يوضح ذلك فى قصيدته التالية :-

أهل الفنون كلها يلزمها تتربى

بعد الجلاء ترتدع وتلمها حَبَّة
أهل الفنون كلها يلزمها تتربىّ
بلاش بقى يلسمك أيه تفرج لنا الضّبةّ
غطىّ لحمك وبطنك .. إنتى يا شابّه !

***

يا مخرجين يا للى أصبح فيلمكم كبارية
وشّاب وارث وشلّه ملمومين حواليه
وبيه بيلعب قمار ، والست جنب البيه
آن الآوان كل ده يا خلق يتخبىّ

***

ويا للى بتألّفوا أفلام على أفلام
فى الجمعة كام فيلم يا مؤلف تبيعها بكام
بقت صناعة الأدب يا مؤلفين إجرام
أمريكا شبعت علينا ضحك وأوربّا

***

وليه يا عاشق بتبكى لما بتغنىّ
وتقول يا وعدى وانا من بدرى مستنىّ
يا للى ملكتى فؤادى إمتى ح تحنىّ
إلهى يا أهل المحَبَّة تبتلوا بضربة !!



الفصل الثالث

محمود بيرم التونسى

(بيــرم والسـيــاسـة)



الطريق إلى المنفى

منذ اللحظة الأولى التى أختار " **بيرم التونسى** " فيها طريق الأدب كان مصيرة قد تحدد تماما ، خصوصا وأنه منذ نشأته قد تشبع بروح الهجاء والسخرية ، كان " **بيرم** " فى نشأته قد قرأ شعر " **ابن الرومى** " وتأثر به تأثرا عظيما ، ثم أخذ يتابع أزجال " **محمد توفيق** " وهو زجال مأجور استعملة الخديو لمهاجمة الشيخ " **محمد عبدة** " والتشهير به والتهكم عليه واضطهاده فى صورة فردية ، وكان " **محمد توفيق** " يتمتع بأسلوب سلس قوى وروح قمة فى الهجاء والسخرية .

وقد تأثر " **بيرم بمحمد توفيق** " كما تأثر " **بابن الرومى** " ، وأخذ عنه أسلوبه التهكمى وتشبع بروحه الساخرة ونزعته النقدية ، لكنه أخذ عليه انسياقه فى ركاب السلطة وتحوله إلى بوق مأجور للسلطان .

وعندما نشر " **بيرم** " قصيدة " **المجلس البلدى** " التى كانت بدايته الحقيقية فى مجال إصراف الكتابة ظهر تأثرة " **بابن الرومى** " و " **بمحمد توفيق** " واضحا فى اسلوب هذه القصيدة ، وعندما حققت هذه القصيدة نجاحا غير متوقعا استمر " **بيرم** " على هذا النهج وراح يطوره ، وتمسك بالمبدأ الذى بنى عليه مناهجة فى الفن منذ اللحظة الأولى .

كانت كل قصيدة يكتبها " بيرم " لا تقل حماسا وصدقا وسخرية وتهكما عن سابقتها ، وقد بلغ " بيرم " قمة السخرية فى القصيدة التى كان نشرها أحد أهم الأسباب التى أدت إلى نفيه وهى قصيدة " **البامية الملوكى والقرع السلطانى** " وهى القصيدة التى قال فيها :

البامية فى البستان تهز القرون … وجنبها القرع الملوكى اللطيف
والديبان يلم الزبون … صهين وقدم وأمتثل يا خفيف

مرمر يا زمان مرمر

البنت ماشية من زمان تتمخطر … والغافلة زارعة فى الديوان قرع أخضر
يا راكب الفيتون وقلبك حامى … اسبق على القبة وسوق قدامى
تلقى العروسة مثل محمل شامى … وجوزها يشبة فى الشوارب عنتر
وحط زهر الفل فوقها وفوقك … وج[illegible]ا شبشب يكون [illegible]ى ذوقك
ونزل النونو القديم من طوقك … ينزل فى طوعك لا الولد يتكبر
تشوف حبيبها بالجاكتة الكاكى … وانسته خيل والأمشجى الملاكى
تسمع قولتها أوف أوه يا وراكى … والعافية هابلة والجدع متشطر
الوزه من قبل الفرح مدبوحة … والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة … قلت اسكتوا وخلوا البنات تتستر

مرمر يا زمان مرمر

وفى هذه القصيدة كان " بيرم " يردد الأشاعات التى طارت على ألسنه الناس والتى تؤكد أن وريث العرش المصرى قد ولد بعد أربعة أشهر فقط من

الزواج ، وأغتاظ السلطان لجرأة " بيرم " وإقدامة على نشر هذا الزجل الذى ينطوى على أقذع أنواع التشهير وامر بأغلاق مجلة " المسلة " .

إلا أن " بيرم " لم ييأس واصدر مجلة أخرى سماها " الخازوق " انتقد فيها زوج أبنه السلطان فؤاد ، المحافظ " محمود خيرى باشا " فغضب السلطان فؤاد واصدر " أمرة بنفى " بيرم التونسى " فوراً .

ولو لم يكن " لبيرم " فلسفته فى الفن ، لما قادة الشعر إلى المنفى ، إلا أن " بيرم " كان يعرف طريقة جيداً منذ البداية ومنذ اللحظة التى أختار فيها أن يمثل ضمير أمته وأن يكون النبض الحى لوطنه ، وكان بوسع " بيرم " أن يحيا مثل غيره من الأدباء والشعراء وأن يحصل على كل ما يريده من مال واستقرار ، لو أنه تراجع عن منهجة النقدى الساخر وابتعد عن السياسة والاستعمار والقصر واقتصرت موضوعاته على الحب والنساء .

لكن الفن عند "بيرم" يختلف، للفن عند "بيوم" فلسفته تقوم على رؤية ومبادئ، وهو رسالة هدفها التجديد والتغيير والأصلاح والوسيلة إلى ذلك هى "النقد" فالنقد هو الوسيلة التى يهدم الفنان بها كل قديم ويبنى كل جديد.

والفن عند "بيرم" وسيلة للتربية ، أو هو ثورة على الظلم والقهر والفساد والاستبداد والقصر والاستعمار ، وهو ثورة على الفقر والجهل والتخلف .

ولذلك كانت كلمات " بيرم " جديرة بأن تقودة إلى المنفى ..

فهى نذير الثورة التى بشر بها الواقع المصرى ، الشعبى ، قبل ثورة ٢٣ يوليو بكثير ، فقد كان " بيرم " على صلة دائمة وحية بالشارع المصرى والحركة الوطنية وقد شارك بكتاباته فى ثورة ١٩١٩

وقد كانت مجلة " المسلة " هى المنشور الدائم الذى يصدرة " بيرم التونسى " ليعبر فيه عن إرادة الشعب واحوال الوطن وضرورة التغيير .

فقد ظهر العدد الثانى من " المسلة " على سبيل المثال بعد سفر " سعد زغلول " إلى فرنسا لحضور " مؤتمر فرساى " .

وقد صدر هذا العدد وهو يتضمن الهجوم الشهير الذى شنه " بيرم " على مفتى الديار المصرية الشيخ " محمد بخيت " والذى يقول فيه :-

أول ما نبدى نصلى على النبى
نبى وطنى يلعن أبوك يا بخيت
تانى كلامى وفد مصر بلادنا
ولع شموعه والتقى الكبريت
تلاتين سنه يا مصر وأحنا فى ضلمة
لما حدايتنا ريت الكتاكيت

بل أن " بيرم " كان يشارك بنفسه فى مظاهرات الطلبه والعمال بعد أعتقال " سعد زغلول " فى ٨ مارس ١٩١٩ ونفيه إلى مالطا .

ولم يكن يكتف بالكتابة وحدها ، فالوطنية المحتدمة هى الباعث الحقيقى لثورة " بيرم " التى قادته إلى المنفى وتطلعه إلى تحقيق العدل هو الذى دفعه إلى أن يقول :

كان النبى والصحابة يجلسوا ع الأرض
متجمعين والفقير عند الغنى له فرض
والكل فى الكل إلا فى الحرام إخوان
سيدنا عثمان ما كانش عنده رتبه بيه
حتى الخليفة عمر كان يشتغل بإيديه
ولا إمامنا على كان عنده الف جنيه
ولا أبو بكر عنده ستلاف فدان

ولما تتوزع الحنطة وصاع التمر
كان اللى يا خدة بلال قد اللى ياخده عمرو
والأمر لله لوحده هو صاحب الأمر
ينزل سماوى لا دكريتو ولا فرمان
أوجب ع[illegible]هم إله العرش شئ معلوم
يطلع ما فيش منّ للسائل أو المحروم

ولأجل هذه الغاية .. " العدل " ، الذى لا يتحقق إلا بالثورة عن طريق الفن كتب "بيرم " أروع أشعاره وأزجاله النقدية الساخرة .

الشرق

من قبل ما اكتب أنا عارف القول ضايع
والأجر بالتأكيد ذاهب حسب الشايع
والشتم حا يجبنى مسوجر من واد صايع
مهما أنكويت بالنار والزيت بـرضك فنان

***

يا مصرى وأنت اللى فاهمنى من دون الكل
هزيل ويحسبك الجاهل عيان بالسل
من دى الكيوف اللى تصبر على كتر الذل
ونمت والعالم فايق قوم بص وطل
وشوف الشعوب واتفص ودوب وارجع إنسان

اللى آلمنى وبكانى أنت يا شامى
عالأكل نازل طول عمرك بارد حامى
وقلت لى لما نهيتك مصرى حرامى
لحد ما الجزار خلا جرحك دامى
والله الخروف سايب معلوف ما يفوته جعان

***

والمغربى المسلم راخر أبو زر فاشوك
لما انتقته فزع فقال لى يلعن أبوك
ونا اللى قصدى أشوف قفيته يصبح مفكوك
لقيته فرحان به راضى طيب مبروك
خليك فقير دق البندير وكل التعبان

***

روح العراق راخر قول له كيف الأحوال
لإمتى تفضل يا اخينا بحرام وعقال
ما تعرف الجاز يستعمل غير للمشعال
الطم بقى وقول ويايه الجاز أموال
واوعى المداس يفلت تحتاس وتقولى أمان

***

يا شرق فيك جو منور والفكر ضلام
وفيك حراره يا خسارة وبرود أجسام
فيك سبعميت مليون زلة لكن أغنام
لا بالمسيح عرفوا مقامهم ولا بالإسلام
هى الشموس بتخلى الروس كدا هو بدنجان

***

وكان " بيرم " على ثقة من أن تخلف الشرق لا يزول إلا بعد زوال الاستعمار ونهضة الأمم الشرقية ، لذا فقد أخذ " بيرم " على عاتقة مهمة الهجوم على الاستعمار والتعبير عن الإرادة المصرية الوطنية فى مواجهة الاستعمار ، فكان " بيرم " فيما كتبه بحق يعتبر ضمير الأمة ونبض الشعب وصوته الصارخ فى وجه القوى الاستعمارية الغاشمة حينا ، كما كان الصوت الذى يحض على الثورة ضد الاستعمار فى أحيان أخرى ولو استعان على ذلك بالاستفزاز كما فى زجله التالى :

الاستعمار

الأوله آه .. ، والتانيه آه .. ، والتالته آه ..
الأوله ، شطبت تونس من الإسلام ، وجزاير طواها البين
والتانيه ، تحكم بلاد الهند والأهرام ، باشاير وغمزة عين
والتالته ، حطت على حكم العراق والشام ، بذخاير وطيارتين

***

الأوله ، لما كل المسلمين صارت ، خدم .. وعبيد

والتانيه ، حطوا بناتهم قشلاقات فارت بنار وحديد
والتالته ، أسعارنا فى سوق الغنم بارت ، نهار العيد

***

الأوله ، أمه خايبة ، والتاريخ .. معلوم
والتانيه ، جات ضربة صايبة .. من بلاد الروم
والتالته ، قول جاتنا نايبة والكلام مفهوم
الأوله آه .. ، والتانيه آه .. ، والتالته آه ..

***

ويتعجب " بيرم " لأحوال الشعب المصرى ، ويسأل نفسه عن أسباب تخلفه الاجتماعى والسياسى والأقتصادى .

ثم لا يلبث أن يحيل السؤال إلى زجل ينشره على الملأة ليحض به الشعب على النهوض من كبوته والسير فى طريق النهضة :-

يا مصرى

يا مصرى ليه ترخى دراعك   والكون ساعك
ونيل جميل حلو بتاعك   يشفى اللهاليب

***

خلق إلهك مقدونيا   على سردينا
والكل زايطين فى الدنيا   ليه إنت كئيب

***

وادى العراق نصب النصبة ودخل العصبة
وأرضك أنت دهب خصبة من غير أنابيب

***

لكن قعادك متخبى عند " جروبى "
جعل جميع جرابيع ربى قد الكلاليب

***

فى استوماطى أتومبيله وباع هلاهيله
وأمك أنت اللى تجيله تقطع جلاليب

***

وخالتك أنت اللى تعامله وتتهلضم له
ويبيع لها كلوينا وقمله يدب دبيب

***

وأختك أنت اللى سوارها وكل شوارها
من عنده هوه ومشطرها فى ملو الدواليب

***

هناك يقابلوك فى فرنسا بذوق ومؤانسه
لكن جيبوك ولا تنسى تحت التشطيب

***

مــا تحط نفـسك فى العـالى وتتــــبـــاع غـــالى
وتــف لـى عـلـى ف بــالـى من غــيــر مـــا تعـيب

***

ونقــولـه كــرمنا لضـيـوفنا لــكـن صـــــوفــنــا
مـــا يتنتـــفش إلا بكيــفنا ويــــد حـــبـــيــب

***

وعندما يعلم "بيرم" بتبأ سفر سعد زغلول زعيم الأمة مع الوفد المصرى إلى فرنسا للتفاوض تتفجر وطنيته بحماس شديد ويكتب الزجل الآتى وينشره:

قولوا لعين الشمس ما تحماش

أطلع نهار الجمعة فوق المنبر واقول يعـيش سـعـد الرئيس الأكـبـر
قولوا لعين الشمس ما تحماشى إلا رئيس الوفد صـاح مـاشى
سمع طبول الحرب ما ستاشى وقـال وكيل البنت لازم يحضـر
وقــول يا مــوج البـحـر هدّى واصبـر كدا لما السفينة تعدى
ويا سـحـابة يا للى فـوقـه مـدّى ضلك على قـد الكبـين والعنبـر
يا يوم مبارك يوم ما شنقت بلادك والأمـة حـولك كلهـا واولادك
والغيظ دخل قطع قلوب حسادك لما على إيدك بلاد تتـحــرر
الزهـر من شـوقـه لرؤياك فـتح والشمس بتقولك يا سعد تصبح
وكل شئ ينظر إليك ويسـبح للى أمـر وجـه الزمـان يتـدور
البحر قال : أنا اللى جبت المركب والبر قال : أنا اللى عندى الموكب

وادى العـواصم كلهـا بتـرتب حـالا وبيت الأمـه زاهـى منور
أهلا وسـهـلا قلتهـا من قلبى لله فى لله واللى عـالم ربى
الدنيـا تعـرف وأنت تعـرف حـبى واللى جـرى لى والمنافق يظهـر

وكان " بيرم " على ثقة أيضا من أن الاستعمار هو أحد أهم عوامل تخلف الشرق عمومـا ، وتخلف مصر على وجه خاص ، ولأن الاستعمـار يتحـايل لتوطيد وجودة بالملكية المصرية ذاتها ، فالملكية عملية للاستعمار وحليفة ، والاستعمـار هو الذى يحمى عروش الملوك الذين يرثون الأمم وينظرون إلى شعوبهم كما لو كانت من الممتلكات التى تورث .

ولهذا السبب أبقى الاستعمار على الملكية فى مصر ، وراح يستبدل على العرش الملوك .

وكان على كل ملك أن ينفذ السياسة الاستعمارية .

ولأن " بيرم التونسى " هو النبض الحى الشاعر بقلب الحارة المصرية وجماهيرها فقد شعر " بيرم " بنوايا الاستعمار ، وأهدافه ، وشاهد بنفسه آثاره على البلاد والناس ، وفهم العلاقة بين القصر وبين الاستعمار فراح يفضح هذه العلاقة فيما يصدره من أزجال ينشرها فى مجلته .

وراح الناس يرددون فى سخرية أزجال " بيرم " عن الملك والعرش والاستعمار وعملاء الاستعمار من الباشوات :-

وكلك على الجمـعـة الجـلية بالك على أيه ؟
حـاتنعـقـد لك جـمـعـيـة وصـالون وبوفـيـه
من كل كـفـر ومـديرية يجى باشـا وبيـه
بيـخـبطوا لك نامـوسـيـة ودايـر سـتـانيـه
وابن الحـلال تحت التمـثال وادى الاسـتـقلال !!

وعندما يطفح الكيل " بيرم " فإنه لا يكتفي بالتلميح بل ينفجر بالتصريح المباشر ، ويكتب عن الملك نفسه زجلا يستفزه ، وسرعان ما يحفظ الناس هذا الزجل ويرددونه في سخرية وقد وجدوا فيه لسان حالهم المعبر عن مشاعرهم تجاه الملك والاستعمار :-

مجرم ودون

ولما هدمنا بمصر الملوك جابوك الانجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون
وخلوك تخالط بنات البلاد على شرط تقطع رقاب العباد
وتنسى زمان وقفتك يا فؤاد على البنك تشحت شوية زتون
بذلنا ولسه بنبذل نفوس وقلنا عسى الله يزول الكابوس
ما شفنا إلا عرشك يا تيس التيوس لا مصر استقلت ولا يحزنون

ويستمر " بيرم " على نفس النهج والطريق ولا يتوقف لحظة عن التنديد بالاستعمار أو محاولات فضح أساليبه ومكائده ومؤامراته على الشعب المصري . لذا نجد " بيرم يقول في :-

تصريح ٢٨ فبراير

الأوله بالبنادق سكتوا الثوار ومدافع ، أهم فاضلين
والثانية اللورد ملنر يربط الأحرار ويترافع عن الغايبين
والثالثة تصريح في فبراير وأصله هزار ومش نافع .. وقلوا آمين

***

الاوله مين يمزق حجة الطالب فـــى ديـــن مـــطـــلـــوب
والثانية مين بس يمنع حجة الغالب عـــن المـــغـــلـــوب
والثالثة تسلب ولكن قال لنا السالب أنـــا المـــســـلـــوب

***

الاولـــه ، بـالـســـهـــولة .. ضـــيـــعـــوا الأرواح
والـثـــانـيـــة ، غـــول أبـن غـــولـه جـــار علينا وراح
والـثـــالـثـــة ، هـيـــه المهـــولـه تلتـــقـــيـــهـــا مـــزاح
الأولـــه آه .. ، والـثـــانـيـــة آه .. ، والـثـــالـث آه ..

وفى قصيدة " مصر المجاهدة " أبدع " بيرم " بحق إذ روى قصة كفاح مصر من أيام المماليك باختصار شديد وأسلوب سلس رائع، وسخرية مريرة ، وحزن ينعى البلاد وأحوالها وما يترى عليها من المصائب والبلايا وما تنوء بحمله من الأرزاء ، فالشاعر هنا هو ذاكرة الأمة ، أيضا ، لأنه المعبِّر عن أحوال انكسارها وانتصارها ، ويحتفى " بيرم " بثورة الجيش المصرى كتتويج لكفاح مصر ونهاية عهد وبداية عهد جديد .

مصر المجاهدة

يا ما عجايب وغرايب ، والا مصايب وردت عـلـى مـــصـــر
الهمشرى والأناضولى ، والمنفولى أحـــدف على مـــصـــر
وجيوش من الإنكشاريه ، والدلاتيه اشـــحـن على مـــصـــر
عبيد وكانوا خدامها ، بقوا حكامها واحـــتـــملى يا مـــصـــر

سكنوا القصور زى القلعة، وشموع والعه   واحنا فى ظلام

حلال عليهم خيراتها ومسراتها   وعلينا حرام

حتى بقينا فى بلادنا - مع أولادنا   زى الأيتام

ولكل واحد يتألم ، أو يتكلم   حكم الإعدام

نهض الفداوى عمر مكرم - يجى يسلم   والشعب وراه

حلف يمين ليصفيها - من أعاديها   بمشيئة الله

حلف محمد على وياه - ليسير فى هداه   وبكل قواه

ولما حازها وأتولى - قليل المله -   خانه ونفاه

نهض عرابى من بعده*، وجمع جنده   للعيله الدون

توفيق صرخ لانجلترا، جات من بره   تحميه وتصون

الإنجليز ملكوا أمورها - أما أميرها-   عاجز مجنون

وعاش عرابى فى منفاه - يا عباد الله -   حى ومدفون

وبعده قام مصطفى كامل   زين الشبان

فى كل ناحية فى أوربا، يرمى الخطبة   زى البركان

دنشواى ومشانقها - ومن علقها -   مجرم وجبان

وانشال كرومر من قصره - وبلغ نصره   جدع الجدعان

وعام تسعتاشر قامت - ثورة ونامت -   أيام وسنين

وسعد زغلول أشعلها – ويا رجالها وغـريمـهـا مـين
و" شهود ملك " منها فيها – قالوا نخفيها ونجـحـوا الخـاينين
وفى اللومان شباب الأمة، أما همه قـبـضـوا الملايين
شـهـود ملك لنجليز خـدمـو العـدا الأشـرار
وكل منهم قـبض لـه مـن الـدهـب قـنـطـار
تلاتين سنة مصر يحكمها الحـديد والنـار
نايمـه حـزينة ويشـرب دمـهـا الجـزار
وفـؤاد وابنه فـاروق جلبـوا عليـهـا العـار
قام الجيش المصرى الضارب دمـر عـرش الظلم وطاح
فيـه الشـعب وفيـه الطالب وابن العـامل والفـلاح
يا لله يا خـونه – يا رعـاع بره احنا الأولى بخـيـر البـر
أهى أراضـينا بقت فى إيدينا وكل دخـيـل منهـا ينجـر
والخـواجـات اللى دخلوها واحـتلوها سـبـعـين عـام
تركوا الأرض وشالوا حمولهم بعـدما وطوا وضربوا سـلام
كـل دا إبـتــدا لسـه قـدامنا عـدا
لسـه قـدامنا الجـهـالة تـنـتـهـى
لسـه قـدامنا السـمـاسرة تـنـتـهـى
بعـده – يا صـحـارى – يا برارى – إكـشـفى
اللى فـيكى مـخـتـفى

بعـــد ده - يا مـــراكب - يـا حـــبـــبـــبـــه
بعـــد ده - يا مـــدافع - يـــا بـنــادق - ســلـــمـى

عـــالـعـــدا واتكلمى

انتــهى عــهــد اللئـــام والمفـــاوضـــة والكـلام
وابتدى عهد الجهاد ، والنظام والـســـــــــلام

والواقع إن قصيدة مصر المجاهـدة من القصائد التى كتبها " بيرم " للاحتفاء بالثورة ، وسرد فيها قصة كفاح مصر كما قلنا ، فهى من القصائد الأخيرة ، وقد كتب " بيرم " قبلها الكثير من القصائد والأزجال التى تندد بالملك والملكية ، والاستعمار ، وتفضح فساد الحكم ورجاله .

فإصرار " بيرم " على مواصلة الكفاح الوطنى من خلال الأدب والفن هو الذى قادة إلى المنفى ..

وكان الطريق إلى المنفى كما قلنا قد بدأ بزجل : " البامية الملكوى .. والقرع السلطانى " ولم يتوقف بعده إذ أن " بيرم " ظل يسدد ضرباته للاستعمار والملكية وينشر المزيد من القصائد والأزجال المناهضة للملكية والاستعمار كلما سنحت له الفرصة .

وسواء كان " بيرم " فى مصر أو سوريا أو بيروت أو تونس أو فرنسا فأنه لم يتوقف لحظة عن مواصلة كفاحه الذى بدأ بقصيدة " الباميه الملوكى " .

ومن القصائد الزجلية الرائعة التى كتبها " بيرم " فى مناهضة الاستعمار ما كتبه تحت عنوان " سياسة مدبرة " ..

فهو فى هذا الزجل يتجاوز مناهضة الاستعمار إلى فضح أساليبه

وأهدافه مما يعكس الحس الوطنى الصادق والروح الثورية التى ظلت تقود "بيرم" وتدفعه دائما إلى تحقيق المبادئ الأدبية والفنية والخلقية والسياسية التى شكلت وجدانه الثائر .

وفى هذا الزجل يحذر "بيرم" العالم من المطامع الاستعمارية التى ستقود العالم حتما إلى حرب عالمية ثالثة :-

سياسة مدبرة (١٩٤٧)

لله سياسة مدبرة	من الأزل متقدره
سخر لها المتفشخرين	الأمريكان وانجلترا
الحرب جاية والسبب	هيه الغنايم والسلب
الهند والصين والعرب	وجعلهم مستعمرة
تبرك عليها الأنجلو	أما اللاتين فيرحلوا
وفى بلادهم يفضلوا	أمم ، ركش ، متأخره
الروسيا حاتقول حصتى	حايقولوا للروسيا اسكتى
حاتقول جنودى وقوتى	حالا تقوم المجزرة
وبعد ما يمر الزمن	حايقول تشرشل لترومان
من طنجه حتى لليمن	أراضى تتبع لندره
ولسه تدفع لى الكلف	ونجيب سلف غير السلف
جديره غير اللى سلف	والدفع عند المقدرة
يهدوا تانى اللى اتبنى	بحرب تالته تسرنا
ونبص نلقى نفسنا	فى دنيا زاهية منوره

ويلتفت " بيرم " بعد ذلك إلى ظاهرة من الظواهر التى أدهشته وأغضبته ، فقد علم أن تجارة المخدرات اليهودية فى مصر تبلغ حصيلتها السنوية حوالى السبعة ملايين جنيها ، أى أن الشعب المصرى يساهم فى تلك الآونه فى بناء الأقتصاد الإسرائيلى بهذا المبلغ !! .

ويغتاظ " بيرم " بالطبع ولا يدع الظاهرة تمر دون رصدها ، ثم نقدها ، بنفس أسلوبه المعهود الساخر الذى يصف به مدى السفه الذى جعلنا نساهم فى بناء اقتصاد العدو وبناء دولته !! .

ومنذ هذه اللحظة يلتفت " بيرم " إلى الشعب وسلوكياته فى محاولة لأيقاظ وعيه السياسى وحسه الوطنى سواء إزاء الاستعمار أو العدو الصهيونى أو أعداء الشعب فى الداخل والخارج على السواء وهو يدق ناقوس الخطر .

٧ مليون

يا للى قاعد ترص   شد حيلك وقصّ
حق واحد ونصّ   من حشيش اليهود !!
كل عام يا سمك إيه   سبعة مليون جنية
تتوضع فى يديه   اللى هُوَّوا داوود
يشترى النفلات   يشترى الدبابات
وأهو عشش وبات   من زمان فى الحدود
حبل شنق السفينة   يتفتل منه فيه
وبايديه يشترية   فى الهبوط والصعود
مصر بتقول يا صاح   فى سبيل الكفاح
عايزه حقّ السلاح   عايزه حقّ البارود
وأنت من خمسة صاغ   بتناوى الزواغ
وف خرابه دماغ   ترمى كلّ النقود!!

والتفت " بيرم " إلى الحياة السياسية فى مصر بعد ذلك .

وبدأ يرصد ظواهرها ومظاهرها ، ثم يلتقط تفاصيلها ليحيك حولها موضوعات أزجاله ، ومن خلال هذه الموضوعات رصد " بيرم " الكثير من سلبيات الممارسة السياسية وأمراضها ، ومن هذه السلبيات ما يتعلق بالبرلمان المصرى ، فقد تناول " بيرم " شخصية " النائب البرلمانى " بالنقد ، وفضحها كما فضح الملك والاستعمار والباشاوات فإذا بهذا النائب يتساوى فى النهاية (بالسمسار) الذى يعمل لمصالحة الشخصية مستغلا حصانته البرلمانية فى تحقيق مآربه !!

ثم يرسم "بيرم" صورة كاريكاتورية ساخرة للانتخابات المصرية يرصد فيها حركة الجماهير فوق "اللوارى" وهى فى طريقها إلى الانتخاب محدثه ضجيجها المعتاد بالطبل والمزمار؟ فى حالة ضمنية إلى أن الانتخاب لا يتم بناء على صلاحية المنتخب للمنصب، وإنما بناء على العواطف أو التعصب أو المصالح.

وهو بذلك يرصد مستوى الوعى السياسى ويضعه بين قوسين دون أن يشير إلى غياب هذا الوعى باللفظ الصريح المباشر ، فالذين يذهبون إلى الانتخاب هم الفلاحون والعمال ، وهؤلاء يتم " شحنهم " على عربات النقل الضخمة " اللوارى " إلى مقر الانتخاب بإيعاز من صاحب الأرض (الباشا) أو صاحب العمل .. وهم يبيعون أصواتهم الانتخابية لقاء المال أو الهدايا ، وكأن صاحب العمل أو الأرض يملكهم كما يملك الأغنام أو الأبقار التى تنقل مثلهم على عربات النقل وهى تخور ، وقد تمثل " بيرم " هذه الصورة فأغضبته ودفعته إلى رصد الظاهرة ونقدها بسخرية مريرة .

البرلمان اللى فات

فى البرلمان اللى فات عدِّينا كام سمسار
السمسرة صنعه أصلى ، والنيابة ستار
سمسار معاة الحصانة ، والحصانة .. جدار
يستر جرايم تدخَّل مرتكبها النار

***

سمسار فى جيبه قضايا الناس فى أجنده
عن عمده ينشال وغيره يتعمل عمده
ومهندس الرى يترحَّل .. ولاو عنده
وإذن تصدير يصدَّر ألف طن خضار

***

سمسار وكرامة ، يدخل الوزارات
يقفوا له صفين من بهوات ومن بشوات
ويعيِّن ابنه الجهول فى أرفع الدرجات
ولا يقول للحكومة موظفنها .. كستار

***

قالوا انتخابات حُرَّة لازمة للبلد فورى
كده الدساتير تقول والمده دستورى
علشان تقوم لك مظاهرة فى أربعين لورى
يستنخبوا المحترم بالطبل .. والمزمار!!

ويواصل " بيرم التونسي " كفاحه الوطني من خلال رسالته الإبداعية .

فهو لا يترك مسألة سياسية ، أو قضية وطنية إلا ورصدها وحللها وعلق عليها أو تناولها بالنقد والتهكم والسخرية ، فالحس الوطني عند " بيرم " كان نشطا يقظا ووعيه السياسي كان مرتفعا بحيث لم يترك مسألة من مسائل السياسة الداخلية أو الخارجية إلا وتناولها في أشعاره وازجاله .

وعندما يبدأ رجال السياسة المصرية وزعماء الأمة في عرض " المسألة المصرية " وتثار قضية الاستعمار والاستقلال أمام المجتمع الدولي ويبدأ الكفاح السياسي الدبلوماسي على مستوى الهيئات الدولية ومنها مجلس الأمن ، يقف " بيرم " مساندا لإرادة الشعب وحقه في الحرية والاستقلال ويمثل " بيرم " صوت الأمة وضميرها الحي فيكتب مناديا بحق الأمة في الحرية والاستقلال ويوجه حديثه إلى مجلس الأمن مباشرة فاضحا انجلترا وأسبابها الواهية التي تتعلق بها للبقاء في مستعمراتها ومنها مصر

فهي تتحجج " بالمعاهدة " وتماطل في تنفيذ وعودها لكي تطيل مدة استعمارها إلى أطول أمد ممكن وهي محاولات مفضوحة ومناورات مكشوفة، يعلنها " بيرم " على الملأ : (أنا أمة تريد الحرية والاستقلال ولن ترضخ لمن يتجرون فيها من العملاء أو الأجانب) .

ولذلك يرفع " بيرم " صوته صارخا ويوجه كلماته النارية إلى مجلس الأمن مباشرة بكل ما يعتمل في ضمير الأمة ـ

يا مجلس الأمن جينا

يا مـجلس الأمن جـينا ... وحـقنا بين إدينا
تنصف مـا ينصف عليكم ... الحق يمـشى وعلينا
قضية ما هيش عسيرة ... مش عـايزة تمحيك وحيره
إنجلترا فى جـزيرة ... ويش جـابها تحكم وادينا
حاتقول بنياتنا معاهدة ... وتسوق أمور المناهدة
نعود قوام للمجاهدة ... والبحر يصبح طحينة
واللى مـا نقدر نصده ... بالضفر والناب نعضه
نعيش نموت زى بعضه ... ولا التجـار يحكمونا
تجار سعرانه جعانه ... عـاملينا فى السوق بضاعة
من ساعة تنزل لساعة ... فى كل بورصة ، ومينا
فرنسا فى الغرب تريح ... وإنجلترا دايره تفتح
والست هولانده تدبح ... فى إندونيسيا الحزينة
أمة محمد جهادها ... وجب لتخليص بلادها
ونص مليار عددها ... لو تعرفوا تحسبونا
أمة محمد عظيمة ... شعوب وأملاك وقيمة
ما هيش هدية وغنيمة ... لجورجى ولا سارينا

وتصدر إنجلترا المزيد من الوعود الزائفة ، وتستمر فى التسويف والمماطلة والتأجيل والمناورة ، وزعماء الأمة يواجهون مؤامراتها ومناورتها ويفضحون مخططاتها أولا بأول .

وهنا يلتفت " بيرم " إلى عملاء المحتل الأجنبى فى الداخل ، هؤلاء الباشوات والوزراء الذين لا هم لهم سوى الإثراء على حساب الشعب والاتجار فى قوته ومصيره ومستقبله ، أنهم الخونة الذين باعوا البلد للمستعمر وأعانوا القصر على الفساد والاستبداد ، والنتيجة :(**هى المزيد من التخلف الاجتماعى والاقتصادى للبلاد**) ، أى أن هؤلاء الخونة قد أعانوا المستعمر على تحقيق أهدافه من أجل تحقيق مصالحهم الذاتية الشخصية .

وظلت أحوال البلاد تتردى من سئ إلى أسوا، ولم تسفر الوعود الزائفة عن شئ فى النهاية سوى قبض الريح، فالشعب وحده هو الذى يدفع الثمن الفادح.

والذين يكسبون ويربحون الثروات الطائلة وينهبون ثروات البلاد فهم : (**القصر وأعوانه والاستعمار**) ، وهؤلاء جميعا يلجئون إلى تخدير الأمة بالشعارات والوعود الزائفة والاستقلال الأسمى .

أما الحقيقة فانه لا شئ قد تغير، بل أن الأمور قد تحولت إلى الأسوأ..

وهنا يجد " بيرم" الفرصة سانحة للقيام بدوره فى فضح الخونة والعملاء والاستعمار وإعلان الحقيقة التى يعلمها الناس جميعا رغم الدعاية الكاذبة :

خريمة يقبض ويحصل

الحمد لله المتعال على وقف الحال
والفنطزه والاستقلال سترك يا كريم

***

خلصنا من زمن السلطة وتسفير ملطه
جينا لزمن ولا بالبلطة نكسب مليم

***

مكتوب علينا يا نبقى عبيد ننساق فى حديد
يا تتجعص والفقر يزيد فى الناس تسخيم

***

يا عم يا للى جنابك سير واسمك ....
رجع لنا الكرباج والخير يا بوسر عظيم

***

فالح لى بس تهنينا وتعزينا
ولما تزعل توريـنا بوز الخراطيم

***

طول مانت قاعد لى ومحبوس فى صالون مخصوص
ماحد غيرنا أحنا اللى يلوص والرب عليم

***

القطن برده لمزراحي ولقرداحي ..
وابن البلد يقعد ماحي في بلاده يتيم

***

القطن برده لمزراحي ولقرداحي ..
وابن البلد يقعد ماحي في بلاده يتيم

***

أقطانه هوه اللى زرعها واللى جمعها
ما تلم له لما يبيعها حق البرسيم

***

خريمة يقبض ويحصل ودا بيوصل
مسكين ويجرى ما يحصل ولا حتى بهيم

***

يا ناس دا عيب على دى النفخات والزمبليطات ..
والعيان اللى بيناتكم مات ولا لهشئ غريم

***

مهما أنضرب فيها مدافع شئ مش نافع
مادام مفيش فيها مدافع ينقال له .. زعيم

***

إن قلنا : أحكام عـرفـيـة فـى الحـريـة
يقـولوا : أمـر الحـربيـة والأمـر قـديم .

***

يعنى الأجـانب تنهـبنا وتـدخـل بـابـنـا
بالـزور وناوية عـى خـرابنا وتعـيش فـى نعـيم

***

إن كان صحيح مأمورها نشيط يحـوش البـرانيط
عن الجـلاليب والزعـابيط ولـه التـعظـيم

***

إيـه السـبب إن الأروام مـاشـيـين قـدام
وين العـرب من سـتين عـام عـاش فـى التلطيم

***

قـال لك لأن الرومى نبـيـه اللى بيـحـمـيـه
علـى الرذايل بيـدريه والمصـرى غـشـيم

***

يفتح لـه بار .. يفتح موضـوع شـئ مـش ممـنـوع
وحنا وعـيالنا نموت م الجـوع صـبـيـان وحـريم

***

مـا فى البلد مـن قلع الخـيش وحـــصل عــــالعـــيش
إلا اللـى ورد شئ للجـــيش أهـــو دا الـــلـــى ســـلـــيـــم

***

وغـيـر بقـى اللى قـريبـة وزير ونسـيـبـة غـفـيـر
ولـه مـرة وقـمـيصـهـا حـرير مـن غـــيـــر أبـزيم

***

يا مـصـر شعبك دمـه خفـيف والعـــقل ســخـــيف
مـا يحب شئ غـيـر التـوظيف ولا الـتـــخـــريم

***

البـورصـة تسحب مـصـرانك لجـل أقـــطـــانـــك
والشـركـة (١) تسحب نسوانك لجـل المبـــاريـــم

***

كـتـر القـعـاد عند الصـيـاغ ربـــى لـــهـــم داغ
ومـسـتـحـيل القـحـش الصـاغ يـعـطـوه لحـكـيـم

***

تبـقـى المرة عـيـالهـا معـاها أصـــحـــاب عـــاهـة
وبالأسـاور تتـبـاهـى بـيـن المعــــازيـم

---

(١) شركة المصانع الفالصو .

نسوان ما تعرف خلخالها من غريالها
وتعرف اللى حا يجرى لها قال بالتنجيم

***

ويتابع " بيرم " أخبار الزعيم الهندى العظيم " المهاتما غاندى " ويتأثر بكفاحة ضد الاستعمر فى الهند ، ويعجب بطريقته فى الكفاح إلا أنه يجد فى شخصية " غاندى " وقضيته وشعبه المستعمر المطحون الفقير مادة خصبة صالحة يمكن أن يتناول من خلالها قضية مصر .

لقد كانت مصر هى الهمّ الأول والأخير فى حياة " بيرم " ، فهو إذا كتب عن المنبوذين فى الهند وعن الزعيم " غاندى " تذكر أننا فى مصر نعانى من الاستعمار ، والجوع والفقر ، والجهل ، والمرض ، والتخلف ، والقهر ، والاستبداد أكثر مما عانت الهند .

وإذا كان " غاندى " (يصوم) عن الطعام كوسيلة للضغط على الرأى العام العالمى ففى مصر .. يصوم الشعب كله ، وإذا كانت الهند تعانى من بعض شرائح المنبوذين فيها فإن شعب مصر كله قد تحول إلى " منبوذين " .

ويطلب " بيرم " من " غاندى " أن يأتى إلى مصر لكى يشاهد ما يمزق القلب بنفسه ويقول له هنا ستجد الأطفال المشردين ، والنساء اللاتى تطاردهن الشرطة .. وسترى الفقر باديا فى ثياب الناس والمتسولين والجيش الهائل من العاطلين وأصحاب الحرف الذين كسدت أعمالهم والتجار الذين بارت تجارتهم .

وهنا فى مصر يتجسد (الفقر والبؤس والضياع ..) .

ومع ذلك فليست مصر بالبلد الفقيرة المعدمة ، بل هى من البلاد الخصبة الغنية .

إنما يسرق ذهبها الحكام والمستعمرون ويتركون شعبها يعانى البؤس والفقر وشظف العيش والذل والمهانة ! .

وكأن الشعب كله قد تحول فجاة إلى قطيع من " المنبوذين " وهنا ينفجر " بيرم التونسى " فى غضبة حماسية من غضباته الوطنية بأسلوبه الساخر ويكتب زجله " لغاندى " بعنوان " المنبوذين " وفى هذا الزجل ينبض أسلوب " بيرم " وكلماته بالحرارة والحياة والثورة والحزن معا :

المنبوذين

يا منبوذين الهند كفوا دموعكم دى — مصر فيها المنبوذين ملايين

من منبوذين حافيين يلموا سبارس — ومنبوذين ماسحين جزم دايرين

ومنبوذين شبان معاهم شهايد — حُرِّم عليهم يدخلوا الدواوين

ومنبوذين نسوان وظابط مباحث — داير [illegible]اهم من كمين [illegible]كمين

ومنبوذين فى البيت عشاهم فلافل — فى العيد ، وأيام السنة جايعين

ومنبوذين ضايعين ما يعرف خبرهم — ونا اللى فيهم ينسمع لى أنين

يا غاندى يكفى الصوم تعالى بلادنا — شوف اللى فيها من زمان صايمين

أنت لقيت الملح أما الكنانة — الملح ميرى واللى ينهب مين

لو جيت فى وسط القوم تبقى مطاوع — ولا الزناتى كاسر الكاسرين

يا ريت تعلمنا صناعة المغازل — محلا المغازل والمنازل طين

بلد دهبها انشال ودهيان حالها — ولسه فيها الإنجليز قاعدين

ولأن الاستعمار هو السبب الأساسى فى تخلف بلدنا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، ولأن " بيرم " يعلم ذلك جيدا ، فقد تحول " بيرم " مرة أخرى إلى الاستعمار ليكيل له الضربات ، ويفضح مخططاته ومؤامراته .

فهو لم يكتف بما كتبه ضد الملك أو المحافظ أو بما كتبه عن البرلمان وعن الاستعمار وال... ولا عن تصريح ٢٨ فبراير وغيرة من التصريحات السياسية المخدرة .

لم يكتف " بيرم " بكل ما فعله ، بل راح يواصل السير فى هذا الاتجاه مضاعفا جهدة حتى شعر القصر بمدى خطورة ما يكتبه " بيرم " ، فقد كانت كتابات " بيرم " تتوالى على التتابع مع الأحداث الحية ، وأصبح من الواضح أن " بيرم " يتخذ من الأحداث السياسية موضوعا لأزجاله وأشعاره فهو ليس من شعراء الحب والهيام ، ولا من شعراء الأغنية فحسب ، إنما هو شاعر وطنى يعتقد أن للفن رسالة هى التغير والثورة ، فهو ليس مثل الشعراء الذين يلهثون خلف السلطان أو يتعلقون بأذيال السلطة .

إنما هو شاعر حر ثائر، والشاعر الثائر لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وتناولها بالنقد والتهكم والسخرية، فهو يلاحق الفساد فى كل مكان ويرصده ويفضحه ويعرى أهلة ويفضحهم حتى لو كانوا من أصحاب المناصب الكبرى أو المراكز الدينية، فهو لا يخشى فى الحق لومه لائم، هذا هو دور الفنان الحقيقى فى نظر "بيرم"، وقد قام "بيرم" بهذا الدور عن صدق وقناعة وإيمان، فضاقت به السلطات ذراعا وقررت نفيه بعد أن اعتبرته نذير الثورة.

وهكذا كان " بيرم " منذ البداية يمضى فى الطريق الذى أختاره لنفسه وادى به إلى المنفى .. لكنه لم يتراجع مع ذلك وظل يكتب أشعاره وأزجاله خارج مصر ويرسلها إلى الصحف ليندد بالاستعمار ويفضح الخونة والعملاء وأهل النفوذ والسلطة والقصر :

الاستعمار البريطانى

أحمدك يا من فتحت الباب علينا بعد أزمان لما دبنا واستوينا
يا لله نصلى على طه نبينا واتحفة بالفل والفضة الزكية
جالنا ضيف بارد وساقع وابن جزمة نام ومزع القماش والوقت أزمة
والضيافة بالكتير ماتكونش لازمه غير تلات أيام ودى بالتلتيمة
طلقه الضيف فى الفطور ميت ألف بيضة غير ميتين طور كل طور معلوف وموضة
بعت عفشى وبعت ملكى وبعت بابى والطاحونة والحمار والبطانية
أسأل البنك العقارى وبنك روما تصرف المبلغ وشيكات المزومة
والقلم مش طالع إلا بالحكومة إن كانت تنفع وبالقدره القوية

الفصل الرابع

محمود بيرم التونسى

(بيرم فى المنفى)



شعر الغربة والمنفى

نفى " بيرم التونسى " إلى " تونس " .

وفى تونس ذهب " بيرم " إلى أعمامه وأهل والده فاستقبلوه ببرود فتاثر بهذا الاستقبال الجاف ، وانصرف عنهم وأخذ يبحث عن عمل ، وتعرض "بيرم " لكثير من المشاكل والعقبات وتحمل الكثير من المآسى والآلام .

لكنه لم ينقطع أبدا عن كتابه الشعر والزجل .

وظلت موضوعاته الزجلية هى نفس الموضوعات التى كان يتناوله قبل نفيه، أى أن النفى لم يرهب "بيرم" ولم يرغمه على تغيير أفكاره وأشعاره وأزجاله.

وهكذا ظل " بيرم " يعمل فى تونس ، فى أشق الأعمال ، وعندما يعود إلى بيته يركن إلى أشعاره وأزجاله كانه يرجع إلى نفسه بعد ضياع ، ويرسل "بيرم " ما يكتبه إلى بعض الصحف فتنشره .

ويشعر الاستعمار أن " بيرم " هو نذير الثورة فى المستعمرات فيتم ترحيله إلى فرنسا .

وفى فرنسا عاش " بيرم " فترة فى الريف الفرنسى ثم أنتقل إلى ليون ثم إلى باريس ، وفى فرنسا شعر " بيرم " أكثر بمرارة الغربة وقسوة المنفى

ووحشة البعد عن الأهل والأحباب ، واضطر " بيرم " إلى العمل فى أشق وأقسى العمال ، وتنقل من عمل إلى آخر إلى أن استقر أخيرا فى عمل الأسطول الفرنسى ، على سفينة ، وكان ما كان من أمر عودته على ظهر هذه السفينة إلى الإسكندرية وهروبه منها .

وعلمت السلطات بوصوله إلى مصر والقبض عليه وترحيله مرة أخرى إلى فرنسا .. ليعود من جديد إلى معاناة رحلة النفى والتشريد .

ويظل "بيرم" فى المنفى يعانى الوحدة والوحشة والغربة وشظف العيش، ولكن روحة الثورية مكنته من الصمود وتحمل الآلام ومواجهة المشاكل والصعاب والعقبات الجمة التى واجهته، وكانت المشاكل التى واجهها "بيرم" كفيلة بأن تشغله عن رسالته وكفاحه وأن تعرقل مسيرة نضاله التى بدأها فى مصر.

ولكنه كان يتمتع بالشجاعة والجرأة وقوة الإرادة وروح التحدى والصمود والصبر والمثابرة ، إضافة إلى أن شعلة الإبداع المتوهجة ظلت قوية على حالها كما كانت منذ البداية فى نفسه .. لذلك واصل " بيرم " مسيرة الإبداع فى المنفى وتمكن من التغلب على كافة المشاكل والصعاب التى كان أملها وأبسطها كافيا لكسر عزيمة أقوى الرجال ، ويدل ذلك على أصالة معدن "بيرم " وأصالة موهبته وصدق وقوة إيمانه بنفسه وأفكاره ورسالته .

فى المنفى ...

كتب " بيرم " الكثير من المقالات والأشعار والأزجال وأرسلها إلى العديد من الصحف فى فرنسا والوطن العربى ومصر ذاتها .

وكانت أزجاله فى تلك الفترة تتنوع من حيث الموضوع بحيث تغطى الجوانب السياسية والاجتماعية والنقدية، وفيها الأزجال التى عبر فيها عن معاناته فى رحلة المنفى، والأزجال التى عبر فيها عن شوقه العارم إلى أحضان الوطن الأم "مصر".. وغير ذلك من الأزجال الشهيرة الرائعة الخالدة.

وليس من شك فى تجربة الغربة والنفى والتشريد قد أثرت فى حياة "بيرم التونسى" ، وأنها قد أثرت حياته وأنضجت وجدانه وعمقت مشاعره وأسلوبه فالآلام التى عاناها " بيرم " نتيجة بعده عن أهله وأولاده ووطنه والصعاب التى تعرض لها كانت كلها كالنار التى تصقل الذهب فى توهجه بل تزيده نقاء ولمعانا وبريقا .

وبالفعل كانت الأزجال التى كتبها "بيرم" فى المنفى أشد قوة، وأكثر عمقا، وأغنى خصوبة، ومن الملاحظ أيضا إن هذه الأزجال كانت أكثر سخرية وأن الحزن فيها كان ينضج بالمرارة والأسى، وأن النقد الذى تضمنته كان أقوى.. فقد تطور أسلوب " بيرم " فى الزجل وأصبح قدر الحكمة التى تنطوى عليها أزجاله يتناسب مع حجم المحنة والمأساة التى يعيشها فى المنفى .

ومع ذلك كان كم الأزجال التى يتحدث فيها عن أحزانه الذاتية ومحنته الخاصة أقل بكثير جدا من كم الأزجال التى يتحدث فيها الموضوعات العامة، والاجتماعية والسياسية والوطنية، فالمحنة مهما كانت قسوتها ومهما كانت أثرها على حياة "بيرم" ومهما كان لها من نتائج على مستقبل أسرته ومستقبله هو نفسه لم تشغل من ذهن "بيرم" وإنتاجه سوى القدر الضئيل، أما الاهتمام الأعظم "لبيرم" فقد كان منصبا على فنه ورسالته وأفكاره ونضاله .

ولقد تأثر "بيرم" بمظاهر المدنية والحياة العصرية فى فرنسا، وبهرة التقدم الصناعى الهائل الذى حققته أوربا، فراح يقارن بين الناس فى الشرق والغرب، وبين أساليب حياة الشرق والغرب، ويقارن بين أنماط التفكير والعادات والتقاليد فى الشرق والغرب، ثم يقارن بين التخلف فى الشرق والتقدم فى الغرب.

وبالفعل كانت المقارنة التى عقدها " بيرم " بين الشرق والغرب مقارنة قاسية النتائج ، لأنها لم تكن مقارنة سطحية أو أحادية الجانب ، إنما هى

مقارنة طالت جميع مظاهر وجوانب الحياة وتفاصيلها .. وحتى أبسط التفاصيل الخاصة بالعادات والسلوكيات .

ولم يكن هدف "بيرم" من عقد هذه المقارنة مجرد التعبير عن الانبهار بالغرب وحضارته وتقدمه ورقيه، والتحسر على تخلف الشرق وانحطاط وتدهور الحياة فيه واستغراق إنسانه فى الجهل والمرض والفقر ورضوخه للاستبداد والقهر والذل والعبودية، إنما كان الباعث الأول "لبيرم" على عقد هذه المقارنة هو غيرته على الشرق عموما، وغيرته على بنى وطنه خصوصا .

فمصريته الحميمة الأصيلة هى التى دعته إلى الغيرة وحركت حميته لعقد هذه المقارنة .. فهو يريد للشرق أن يتقدم وأن ينهض وأن يتحرر ويلحق بسباق الأمم المتحضرة المتقدمة بعد أن يحطم أغلاله ويحصل على حريته وينفض عنه التخلف والجهل والظلام والفقر .

هذا هو الدافع الأول الذى دفع "بيرم" إلى كتابة بعض أزجاله عن ("فرنسا" و"باريس" و"أطفال باريس" و"صمهدى فى باريس" و"حاتجنن") وغيرها من الأشعار والأزجال النقدية الساخرة التى تنقد حياة الشرق عموما، والعادات المصرية خصوصا، وترسم الصورة الكاريكاتورية التى توضح الفارق العظيم بين الحياة فى الدول المتخلفة والحياة فى دول الغرب.

وسيجد الباحث والقارئ معاً أن عدد هذه القصائد والأزجال أكثر من الأزجال التى يعبر " بيرم " فيها عن مشاكله ومحنته الذاتية وأشواقه للوطن ، لكن وحتى الأزجال الذاتية التى كتبها " بيرم " فى هذه الفترة لم تكن غارقة تماما فى الذاتية الخالصة .

إنما هى جزء لا يتجزأ من إبداع " بيرم " ، وهذا الجزء الذاتى لا ينفصل تمام عن الهموم العامة " لبيرم " ورسالته الفنية ، فالأزجال الذاتية لها أهميتها فى دراسة حياة الفنان وشخصيته وأفكاره وأبعاد رسالته الفنية

ومضمونها ومداها وجوانبها المختلفة ، فذاتيتها لا تقلل من قدرها الفنى وشخصيته وأفكاره وأبعاد رسالته الفنية ومضمونها ومداها وجوانبها المختلفة، فذاتيتها لا تقلل من قدرها الفنى فى معايير الإبداع ، باعتبارها وثائق هامة للباحث والقارئ معاً ، إضافة إلى الجانب الإبداعى فيها ، وعلى هذا الأساس يجب أن تنظر إلى أعمال " بيرم " التى كتبها فى فترة المنفى ، وقد كتب " بيرم " فى هذه الفترة معبرا عن محنته التى عاشها وملخصا حياته بعذابها وكفاحها فقال :

حياتى

الأولـه : مـصـر ، قـالوا تونسى ونفـونى
والثـانيـة : تونس ، وفـيـهـا الأهل جـحـدونى
والثـالثـة : باريس ، وفى باريس جـهلونى

***

الأوله : مصر قالوا " تونسى " ونفونى – جزاء الخير
والثانية : تونس وفيها الأهل جحدونى – وحتى الغير
والثالثة : باريس ، وفى باريس جهلونى – ونا موليير

***

الأوله: مصر قالوا "تونسى" ونفونى – جزاء الخير – وإحسانى
والثانية: تونس وفيها الأهل جحدونى – وحتى الغير – ما صفانى
والثالثة: باريس، وفى باريس جهلونى – ونا موليير – فى زمانى

***

الأولـه : شـربتنى من فـراقـهـا كـاس - بمـرارة
والثانيـة : آه فـرجتنى عـالجمـال يـنداس - يـا خسـارة
والثالثة : يا ناس يا ريتنى كان لى فيها ناس - وإدارة

***

الأولة آه .. ، والثانية آه .. ، والثالثة آه ..

وكما قلنا ، كانت حياة " بيرم " منذ المنشأ سلسلة متولية من الفشل والإخفاق والمشاكل والعقبات ، وقد تصور " بيرم " أن حياته سوف تستقر بعد اضطراب طويل ، عندما أستقر رأيه على تحقيق ذاته من خلال اختياره لحرفة الأدب ، لكنه لم يكن يدرى أنه قد بدأ بهذا الأختيار سلسلة أخرى من المتاعب والمشاكل والمحن التى لا تنتهى .

وهذا ما كان بالفعل ، فقد فقد " بيرم " حياته بين أهلة وفى وطنه ، وطرد من مصـر إلى تونس ، وفى تونس تنكر له أهلة ، ثم طردته السلطات من تونس ونفته إلى باريس .

وبهذا لم يفقد " بيرم " الاستقرار الذى كان ينشده فحسب ، إنما فقد معه الأمن والأمان والأهل والخلاف .

وتحول إلى طريد منبوذ لا صديق ولا مجير له، وأضطر إلى التشرد فى بلاد الغربة إلى أن يجد العمل الذى يضمن له القوت وسد الجوع، ولم يكن وجود العمل فى الغربة من الأمور السهلة فجاع "بيرم" وتعرى وتشرد وعمل فى أحط وأحقر وأشد الأعمال قسوة.. ومنها العمل فى المناجم، وربما كان هذا العمل هو السبب فى إصابته بعد ذلك بالربو الذى كان سببا فى وفاته.

وعندما تطول سنوات الغربة فى المنفى لابد أن يتحرك الشوق فى الوجدان ويميل الحنين بالقلوب إلى تذكارات الأيام الحلوة مع الأهل فى رحاب الوطن ، وهذا ما حدث " لبيرم " فعبر عنه بالزجل الآتى :

عطشان يا صبايا

عطشان يا صبايا عطشان يا مصريين
عطشان والنيل فى بلادكم متعكر مليان طين
ولا نهر الرون يروينى ولاميه نهر السين
ودموع العين ما بتروى نار القلب الحزين
شده وتزول يا معوض سبحانه رب معين
دى تلات حكومات يا خوانا ظلمونى واشكى لمين
يا بنت باريس اسقينى كاساتك مليانين
فاضل عالعتبة الخضرا عشرين عام عالهجين
زغروتة يام سد حمد زغروتة يام ياسين
راجع اتوضى واصلى وأزور سيدنا الحسين
وابوس إيد الشيخ بلبع وإيد الباشا التخين

***

وأقول سلامات لخليفة ولشعبان حبيبين
وأتوب على سيدى لاظوغلى عن كار الجرانين
واتجوز بنت الماشطة والكودية أم اسماعين
إياك يتعدل بختى وأخدم فى الدواوين
والبس لى سموكن مقصب وابقى البيه التخين
يا ما ناس فى نعيم وفى نعمة ويتمشى عالعجين
غير شئ جعلوا التخشيبة للغلبان الفطين
يخرج منها ويتسوح من مرسليا للصين
دا جزاء الخايب اللى يعشق بنت التسعين

شايف من تحت البرقع   أهدابها مرعرعين
ما حسبش حنكها مطبق   وسنانها مهرتمين
والفم المحموديه   والراس دي راس التين
وتحب كمان وترافق   أهل الدنيا والدين
ولا تطرد بياع رنجة   ولا بياع الفلين
وولادها اسم الله عليهم   يتعدوا بالملايين
رجالة وصنايعية   بياعين شرايين
واحد تاجر طعمية   والتاني بتاع مصارين
واللي بيبيع جوافة   واللي بيبيع سردين
وواحد كمساري افرنجي   قاعد في وابور طحين
واتنين سارحين بكلونيا   وفنلات معتبرين
والحاج محمد برعي   له فابريكة كوانين
وأخوه له معمل طرشي   مشهور في الكمكيين
والكل يزيد يبارك   قاعدين متصنعين
ما ينوب الواحد منهم   غير قفل الدكاكين
يا رازق جيش الأزهر   إياك نستعين
يا باريز يام بلاد بره   يا مصرية ولا مرتين
بعتت لك أم الدنيا   شاعر في الشعر متين
يعمل أشعار لبرابرة   وصعايدة وفلاحين
وتلامذه وأزهرية   وخوجـ[illegible] مفتشين
إياك ما يموتش عندك   في أزيل المـ[illegible]ـاكين

كانت المحنة قاسية، وكان أخشى ما يخشاه "بيرم" هو "الموت فى الغربة".

لكنه لم يمت ، رغم أن ما عاناه كان كافيا لقتل رجل مثله رقيق المشاعر مرهف الحس يقظ العقل مهوار الوجدان .

فقد كرس " بيرم " كل جهده ووجه كل انفعالاته للتعبير بفنه عما يراه من العجائب فى فرنسا .

وراح يقارن بين (الحياة الغربية والحياة المصرية) ، وبين مستوى معيشة الناس على اختلاف أنواعهما وطبقاتهم فى فرنسا وبين مستوى الناس على اختلافهم فى مصر .

ولقد لفت نظر " بيرم " ما شاهدة من تحرر الإنسان الغربى وتمتعه بالحرية والانطلاق ، وأدهشه نشاط الناس وحماسهم وإقبالهم على الحياة وجديتهم سواء فى العمل أو فى اللهو ، فكل شئ فى الغرب له وقته .. ويجب أن يأخذ حقه !!

أما الشرق .. فليس فيه سوى الكسل والخمول والفوضى والهمجية ، حيث لا نظافة ولا نظام ولا عمل ولا حرية ولا حقوق للناس ، ولا شئ يتم على الوجه الأكمل أبداً ، فالشرق يرتبط بالنقص والهمجية ، والغرب يرتبط بالكمال والرقى والتقدم والنظام .

لقد تأثر " بيرم " بالحياة ومظاهرها فى الغرب ، ورغم معاناته ومحنته وحنينه إلى الوطن .

رصدت عينيه مظاهر التقدم والحرية والحضارة ..

وانفعل " بيرم " بما رصدته عين الفنان فجاشت نفسه بأروع الأزجال التى سجل فيها تلك المشاعر الناجمة عن التأثر بحياة الغرب .

وكما قلنا سابقا فإن "بيرم" كان يهدف أولا وأخيراً إلى استفزاز الإنسان الشرقي لينفض عنه الخمول ويحطم الأغلال ويكسر طوق العبودية للجهل والخرافة والاستعباد فيتمكن من تحقيق النهضة والتقدم والحضارة..

" فبيرم " يعتقد أن إنسان الشرق يملك مقومات النهضة والتقدم تماما كما يملكها الإنسان الغربي .

وقد عبر " بيرم " عن تأثره بالحياة الغربية على النحو التالي :

باريـــــس

الفجر نايم وأهلك يا باريس صاحيين ممرين الطريق داخلين على خارجين
ومنورين الظلام راكبين على ماشيين بنات بتجرى وياما للبنات أشغال
وعيال تروح المدارس في الحقيقة رجال ورجال ولاكن على كل الرجال أبطال

ولسه حامد وعيشه واسماعين نايمين

راحت على الشمس نومه والبلد في ظلام وقبل دى الشمس فاق ابن المدينة وقام
الكون ينور بإيده لما شمسه تنام فليتها للشرق تطلع على الأطلال
ينشف عليها الغسيل والطبلة والغربال ويقوم على لدعها النايم سنة بطال

صبحت باريس في غنى عنك يا شمس الدين

العلم والرقص دول في معهد السربون أعجب عجيبة أشوفها لو ألف الكون
معهد حكومي! وحقه يشبه الكراكون لكن فرنسا لها دون الأمم أحوال
ليران في الأحتفال بيصافح الشيال وبنت سوق الخضار ساكتة مع الماريشال

والبوسته صندوقها واقف داخل الدكاكين

جارتى سوزان الجميلة اللى تبيع الموز نازل عليها المطر من فم مترأيوز
ابتسمت للمطر ، أحسبها فازت فوز بالبعد عن مشيها فى حارة الكيال
ودرب شعلان وفيه الوحل للخلخال لكن سوزان اللى واقفة واقفة التمثال

مجلس بلدها جعل رجلين سوزان سخنين

شفت العيون والشفايف فى باريس بتقول إحنا ملوك البرايا حكمنا مقبول
البدع والفن كله عننا منقول سادات بنا فى السيادة تضرب أمثال
أحرار محرم علينا السجن والأغلال الفقر والذل مالهم فى بلادنا مجال

ويوم سباق النجايب كلنا سابقين

إن دقت اتنين صباحا، خش مونبارناس حيى العذارى السكارى تحت كعب الكاس
وجوه عزلها جمالها عن وجوه الناس من كل نجمة عاتقها فى سماها هلال
تجذب بنورها أمم فى الهند والشلال هى أفينوس عبادها من ملوك المال

وتبقى صالة بديعة واللى فيها مين

ويكرر " بيرم " التجربة عندما يتذكر العادات الشرقية الدالة على التأخر والتخلف ويتذكر إصرار الشرق على التمسك بكل ما هو قديم عتيق ..

فيشتاط غضبا ويكتب زجله الشهير بعنوان " أنا اتلهيت " وبعده زجلاً آخر بعنوان " فرنسا " ليعبر عن بعد الشقة بين حياه الشرق الخامل المتخلف والحياة فى الغرب الحى المتقدم .. ومع ذلك فهو يسجل فى الزجل الأول حنينه إلى الوطن وأسباب هذا الحنين على النحو التالى :

أنا أتلهيت

أنا أتلهيت وخدل زندى ما نيش نبى الله غاندى
إن كانت الغلطات من دى يكون فى عون اللى عملها
إن كان على الملح أكلنا ون كان على السجن دخلنا
والصوم نحلناه ونحلنا يخلى اللى فاضل لرجالها
يا ما انطحن شاعر قبلى واللوح كتب له اللى كتب لى
إشمعنى شعرك يا غرابلى خلاك تفوت من غربالها
أنا اللى ضليت فى جهادى وغشنى سحر الوادى
حسبقت للنيل أولادى من بعد ما "عمرو" دخلها
يا م الكرانك والدلتا حاتعملى طارشة لإمتى
ما اتغيرت كلمة زفتى والدنيا راقت أحوالها
قالوا اللى يشرب من نيلك لابد يرجع ويجى لك
ونا اللى عطشان فى سبيلك الدنيا إيه اللى جرى لها؟
يا باريس خلاص صبحت خارية اللقمة فيها بمضارية
ونا اترميت عند مغارية الغلب والكرب قتلها
مغارية بالزر فاشوكة يازر تربط به فلوكه
باكل معاهم شكشوكة تشمط وتشوى اللى ياكلها
لاسطل خروب يسعفنى ولابن نكته يكفينى
ما يقصف العمر ويفنى غير الخلايق بعبلها
يا مصر هجرك يكفانى يا عامله قمع وناسينى
دا يوم ما حراجع لك تانى حاتبقى راجعه برسمالها

فرنسا

قضيت حياتى غريب فى أرض فرنسا   يا ويحة من يدخل فرنسا غريب
لقيت كلام القوم شهد مكرر   لكن عيونهم تشتعل لهاليب
مليون أوتيل مفتوح يتاووا جتتنا   وخدامينها ، كل واحد ديب
يرجع كلامنا والصلاة على النبى   للرستوران والرقص والتخشيب
عشر غيلان واقفين عليهم سموكن   حول الفيلان قاعدين بنات مكاليب
يا ما أنجليزى أنشال بدفتر شيكاته   ويا ما هندى رجعوه سنديب
دفع الفتى .. خان ملايين ربابى   لبنت قرعة ما عليها ريب
واللى جرى لفهمى من أمرات فهمى   خلت رصاصها فى ضلوعة يغيب
أتعس عباد الله هناك الأجانب   أقولها والمولى على حسيب
اللى دخل بفلوس ، يا ضيعة فلوسه   واللى دخل يكسب جزاه توضيب
يدخل يشوف ماليين قزان المسابك   فولاذ مسيح فوق دماغه قريب
عليه رئيس واقف ، وراه جرادل   شايلينها من كل الأمم مناكيب
ميل قزانه بالدولاب عالجرادل   كأنه فى الجردل يصب حليب
خمس تلاف درجة ينط شرارها   ويطب يخرق أجمد المراكيب

ولو تشوف يا خال مصانع غازاتهم   تخنق عدو من غير حروق وحبيب
من كل بير يطبخ " كلور " المانيا   اغوط من البركان واقوى لهيب
واقفين عليه أشباح عليهم كمايم   متحضرين للفرف والتقليب
ومن بعيد جاعلين عجوز وعجوزة   فاتحين لوكاندة زيهم تخشيب
مين راح لهم غدوه بنص اليومية   بشورية سايطة والفروطة زيب
ومن أكل يسقوه عصير البتاتى   ومن سكر يرموه فى جرف قضيب
كام مغربى مسلم نطق بالشهادة   ويا ما جرمن صلّبوا تصليب

فالحياة فى الغرب رغم ما هى عليه من التقدم والحضارة والرقى والرخاء والحرية ..

إلا انها حياة تتخللها السلبيات وتنطوى على الكثير من المفاسد ، هى حياة كاملة من حيث الحرية والتقدم والحضارة ..

ولكنها مبنية على أسس مادية جبارة متوحشة شرسة ، ولولا هذه الأسس المادية لما سعى الغرب إلى إستعمار الأمم الضعيفة بهدف نهب ثرواتها ، فالهدف الأول والأخير للتقدم الغربى هو : (الثروة) وتحقيق التراكم الرأسمالى ولو حساب القيم أو الإنسانية عموما .. ·

وهذا هو ما حول التقدم أو الثورة الصناعية فى نظر "بيرم" إلى " غول " بشع شرس متوحش لا يفرق بين شرقى أو غربى ..

ولا هم له سوى إبتلاع الجميع ، وقد عبر " بيرم " عن ذلك فى زجل "فرنسا " لكنه تناول إيجابية من إيجابيات الغرب فى زجل " أطفال باريس " الذى يقول فيه :

أطفال باريس

يا مــتـمـزيل ياللى ف قـصـرك   يا زينة عـصـرك
المبسط يحبك على خصرك   يتـهـز قـوامك

***

فى الحـرب بتـواسى المجاريح   فـوق الطراريح
وتقلبى الغم بتفريح   والنـار بغرام

***

ومشيتك فى السكة غزال وشفايفك عال
كدا سلت ملت مفيش خلخال وسخام لطام
***
ولا الإيدين فيها غوايش ولا شئ حايش
كدا لهط مهط فطير بايش أشمط وانام

***
اللحم ابيض ومزقلط وبيتزفلط
والوش دة مش متخطط زى أم لتام

***
دول فى المدارس ودوكى بيريوكى
الله يخليكى لابوكى وامك يا تمام

***
طلعتى حافضه جغرافيه وصحة وعافيه
حتى اللى هوه بلا قافية حافضاه يا سلام

***
البنت عضو فى أكاديميا وتعرف كيميا
خلينا إحنا فى البلميا والفقر التام

***

تمسك يا عم إيد التلفون مش إيد الهون
اللى تسمع فى الكراكون والناس حاتنام

***

فين اللى تعتر فى الحله وتكسر قلله
من اللى تنش دانتيله من البفته الخام

***

مفرودة دايما لا تبوز ولا تتأوز
عازبه ولما بتتجوز تعمل له مقام

***

يبوسها قدام جمعية وتبوس هيه
لا كسكسا فى الحرية موسيو ومدام

***

مدام يحبها وتحبه وداخله فى عبه
ما يسبهاشى ولا تسيبه مين عنده كلام

***

أما الأنيته أم جلاجل تاخد الراجل
تركبه القفر العاجل وتجيب له لجام

***

متجوزاه وعاملاه سلم لويتكلم
الضرب على صدغة يعلم أكفف وقلام
***
تدخل وتخرج ما تشاور عايزة أساور
ما تخلى شرطى ولا مجاور ولا واد خدام
***
عليها حتة دين عرقوب ولسان مسحوب
وصدغ أطول م المركوب وتياب قدام
***
وجوزها يشرب بنوره وهيه طاطوره
تحبل وتولد بالتوره زى الأغنام
***
ييجوا العيال اللى يهرهر واللى يبرير
ودا اللى أقرع واللى أعور واللى له خزام
***
أطفال أوربا فى عربيات ومربيات
وبزازات وتبات ونبات ولهم حمام
***

لا ده أبوه مليارد كبير ولا ده بن فقير
مادام دا يبقى طفل صغير تعذيبه حرام

***

قال الكرم خد أمولنا أمالنا
يا رب سايبين أطفالنا زى الأيتام

***

مكومين كده فى الشارع روس وكوارع
والسلسلة وعضم الدراع والباقى عظام

***

تدوسهم السادة الشماليل يعنى المساطيل
المجموصين جوه الطوموبيل زى الأصنام

***

آه لما أشوف رزق الجاهل كده بالساهل
صاحب وجاهة ويستاهل حكم الأعدام

***

هكذا .. عبر " بيرم " عن إعجابة بالعدالة الاجتماعية فى الغرب .

ففى الغرب لا فرق بين الناس فى الحقوق، ويتبدى ذلك فى ميدان التعليم، فهو حق للجميع، الغنى والفقير، كما يتبدى فى الرعاية الاجتماعية للأطفال والأهتمام بتربيتهم على أسس علمية صحيحة، وينعكس العدل الاجتماعى فى الغرب على مظهر الحياة، فالمرأة الغربية تختلف كثيراً عن المرأة الشرقية شكلا ومضمونا، والسبب هو مساواه الغرب بين الرجل والمرأة.

أما المرأة فى الشرق فهى مهملة ، لا قيمة لها ، ولا دور ولا وظيفة سوى البيت والأنجاب ، ولو كانت المرأة فى الشرق تنال حقوقها كالمرأة فى الغرب فتحصل على التعليم لتغيرت شكلا ومضمونا ولأصبح فى إمكانها أن تربى أطفالها على أسس علمية صحيحة والصلح حال المجتمع وتقدم ..

ولكن المرأة فى الشرق جاهلة متخلفة أكثر من الرجل ، ولذلك فهى لا تعرف أى شئ عن التربية الصحيحة المبنية على الأسس العلمية ، وجهلها وتخلفها هو سبب تنشئة الأجيال المتخلفة من البنات والبنين على السواء .

وفى هذا الزجل " أطفال باريس " يلفت " بيرم " النظر إلى ضرورة تنشئة الأجيال الجديدة على الحرية والتحرر وعدم التكلف والتضع وممارسة العلاقات الاجتماعية والعاطفية بشكل طبيعى اساسه " التحرر " حتى تصبح الحياة سهلة وغير معقدة وطبيمية ، لأنها إذا لم تكن كذلك فانها ستكون حياة مريضة منحرفة وشاذة ، كما ينبة على دور الحب فى العلاقات الحية الطبيعية ، ويؤكد أنه لا عيب فى أن يعبر الإنسان عن مشاعرة وعواطفة مادامت علاقتنا تنتهى فى الأطار الصحيح ولا تنحرف بنا إلى التحلل والإنحلال ، ولذلك يعود " بيرم " مرة أخرى إلى هذا الموضوع فى زجل بعنوان " صعيدى فى باريس " ليقدم لنا الصورة الساخرة التاليه :

صعيدى فى باريس

عجلى ملخبط يا خلايج وعنيه مزغللين
من نسوانك يا فرنسا البيض العريانين
يا صلاة الزين يا ما شا الله يا ولاد عالنساوين
على شط السين يا محمد نايمين وممددين
واحدة عاتعوم فى الميه والتانية فى الكابين
لابسين خلجات للركبة دايبين ومجطعين
واللحم كزبده طرية كاسياه الفساتين
وكمان وسط الرجالة بالعنيه مدفوسين
مطروح ما ادوس وأطبش ما لجاشى إلا عجين
وناها اتعجب يا خونا بحسب عجلى التخين
" اشمعنى جفاهم أبيض وجفايا زى الطين "
يا خالج الصعايدة عفشين ومعصعصين
وأنا ناشف ليه ومعضم ودولاته متختخين
وأنا اسمى خليفة معوض واسم الحلوين جوزفين
وعاطيهم نسوان عيضة ناشفين ومجشفين
عايجولوا شعورنا طويلة وعيوننا مكحلين
إحرج حيين أسيادهم وادفس لى الميتين
أم الحزام الفضة والتوب الزفتالين
ودرعات كالزجالى وفخاد كالعراجين

شفتوش بنت الخواجة أم الصدر السمين
أم العيون الزرجه الشهل النعسانين
أم الشعور الصفره على راسها ملفلفين
يام الشرايط يا للى عا تجرى الجرانين
يا مريه خبرينى " على جتل يا سين "
ون كنتى تصدجينى عديلى المساجين
واللى عاتجوله علينا فى المعزى الندابين
والله صغير يا محمد حبسوك سبع سنين
واخواتك فى التخشيبة فى الضلمة مكتفين
وامك عاتجول يا محمد وأختك يا محمدين
وجرايب " جرعت " باشا لابسين النياشين
تلقاهم فى الجزيرة قاعدين ومفرشين
للبيه منهم تكريمة يسمعها اللى ف شبين
صدج من قال بلادنا دى بلاد المنفوخين
بالبنطلون والسترة عاملين متمدنين
ليل ونهار يا حبايب مساطيل وممنزلين
ما يشوفوا الطور م النعجة والفرخة م الهاجين
والاستجلال عنديهم بنديره ومدفعين
الله يفلج علينا من دون المخلوجين
جاعدين يا خواجة فى بلادنا شحاتين

وانتو اللى عاتكلو الزبدة والعسل والمنين
فايتينكم كالديابه والخرفان مربوطين
ما نبيع غير الدفافى والجلل مليانين
والجدعان فى المرمة والأولاد مساحين
ابكى عليك يا معوض مسكين والله مسكين
وخديك جاعد وحبايبك فى البلدان مزعوطين
إذا عاندك زمانك اللى حا يحامى مين
زغلول باشا المجاهد فى بلاد العيانين
والسلطة العسكرية قطعت إيدى اليمين
واللورد له أوامر مكتوبة عالجبين
لا البرلمان يمسحها ولا حتى الشياطين

أما أروع الأزجال التى كتبها " بيرم " وقارن فيها بين الحياة فى الشرق والحياة فى الغرب فهو الزجل الذى كتبه بعنوان " حتجنن" .

وفى هذا الزجل عرض علينا " بيرم " بعض الصور السلبية التى يتكون منها نسيج الحياة اليومية فى الحارة المصرية ، وهى بالطبع الصور المنكرة التى لا يمكن وجودها فى الحياة اليومية فى أى مكان فى العالم الغربى .

فقد وصف " بيرم " حياة الغرب ، سواء الحياة العملية أو اللهو ، وجاء الوصف على النقيض تماما من وصفة لحياتنا اليومية .

و " بيرم " بالطبع لا يتجنى على الشرق ولا الإنسان الشرقى ، ولا يسخر منهما ، وإنما هو يقارن بصدق وينقد باخلاص وهدفه كما قلنا هو حث

الإنسان الشرقى عموما والمصرى خصوصا على التقدم والنهضة .

وفى الزجل التالى يرصد " بيرم " بعض السلبيات ، ويؤكد على ضرورة التخلص من الكثير من العادات السيئة غير الحضارية ومنها (**الفوضى ، وعدم النظام ، وعدم النظافة ، والضجيج ، واستخدام الألفاظ القبيحة ، والمشادات التى تنشب لاتفه الأسباب ، وعدم إحترام حرية الغير**) ..

وغير ذلك من السلبيات التى تشير إلى بعض ملامح الشخصية المصرية، وطبيعة الحياة اليومية وإيقاعها فى الحارة المصرية الشعبية ، وهذا الزجل من أشهر أزجال " بيرم " ويقول فيه :

حاتجن

حاتجنن يا ريت يا خوانا ما رحتش لندن ولا باريز
دى بلاد تمدين ونضافة وذوق ولطافة وحاجة تغيظ

***

ما لا قيتش جدع متعافى ، وحافى ، وماشى يقشر خص
ولا شحط مشمرخ افندى معاه عود خلفه ونازل مص
ولا لب اسمر وسودانى وحمص وانزل يا تقزقيز
حاتجنن يا ريت يا خونا ما رحتش لندن ولا باريز

***

ولا عاركة فى نص الليل دايرة بالحيل وساحبها بوليس
قدامها جدع متجرجر وشه معور قال دا عريس
الخلق ما هى بتتجوز واشمعنى احنا مفيش تمييز

حـاتجنن يا ريت يا خـوانا مـا رحـتش لندن ولا بـاريز

***

ولا واحدة فى وش الفجر تبرطع ماليه الدنيا صوات
قال ايه جوز خالتى أم محمد سلفه اخوها السيد مات
سبحانك ما أعظم شأنك والله الموت ده مفيد ولذيذ
حـاتجنن يا ريت يا خـوانا مـا رحـتش لندن ولا بـاريز
ولا واحـد طالع يجـرى وواحـد تانى بيـجـرى وراه
ويقـول هاهـع حـصلتك يا بن اللى ابصـر ايه عـامـلاه
لا الشارع غيط يا خونا ولا احنا بداره ولا احنا معيز
حـاتجنن يا ريت يا خـوانا مـا رحـتش لندن ولا بـاريز

***

ولا واحد بيبيع حاجة يقول بريال وتاخدها بصاغ
يا خونا دى حتى الإبرة تاخدها بدوشة وقلب دماغ
حلفان وعراك ومناهدة ويمكن ضرب كفوف يا حفيظ
حـاتجنن يا ريت يا خـوانا مـا رحـتش لندن ولا بـاريز

***

ولا فيش ميت ألف صعيدى بتوع يانصيب هاجمين ولا فيش
ميت ألف معوض داعس جاى معاه صندوق ورنيش
والله كرهت القهوة وحرمت اقعد عالأفاريز
حـاتجنن يا ريت يا خـوانا مـا رحـتش لندن ولا بـاريز

الفصل الخامس

محمود بيرم التونسى

(بيـــرم والمـــرأة)



المرأة فى شعر بيرم

الشعر لغة يتحدثها الذين يقفون على أسرار الحياة ، ويتولى بها العشاق إلى التعبير عن أحوال الحب والهيام .

فهو ليس حكراً على الشعراء وحدهم ، بل هو أيضا لغة أهل الطريق من الصوفية .

وهو لغة الطيور والأزهار ، لغة الطبيعة فى مناجاتها وبوحها بأسرار الوجود ..

الشعر لغة كونية ، تسرى فى الوجود بين سائر الأشياء والكائنات .. الشعر أجمل وأرق اللغات ، لأنه النبض الخفى الكامن فى إيقاع الكون وفى كل خلجة من خلجات الحياة ، والشعراء هم اقدر الناس على أستخدام لغة الشعر للتعبير عن المشاعر والعلاقات الحميمة ، وتظل لغة الشعر حية نابضة دافئة مادام الذين يستخدمونها هم الشعراء ، أو أهل التصوف ، لكن سرعان ما تتحول هذه اللغة إلى أداه ميته لا نبض فيها ولا حياة إذا استخدمها الذين لا يتقنون فنون العشق ولا يشعرون بآيات الجمال .

فالنفس الشاعرة هى النفس العاشقة ، والصلة بين الفن والأحساس بالجمال والحب هى سر الإبداع ، وإذا أفتقد الفنان هذه الصلة أصبحت لغتة

التعبيرية جافة ، وتجربته الإبداعية ضحلة ، وإذا بفنه لا يتجاوز حدود القشور ، وإذا به يقف عاجزا أمام دقائق الوجود وحقائق الكون والحياة ، لا يستطيع أن يسبر غور المشاعر ولا ينطق بصدق عن الشعور .

وهناك الكثير من الأدباء والشعراء الذين تناولوا موضوعات الحب ، سواء الدنيوى أو الإلهى ، وأكثر منهم الذين تحدثوا عن الجمال فى الطبيعة أو المرأة ، لكن من بين هذا الخضم الهائل من النصوص الأدبية لا يبرز إلا أقل القليل، وهذا القليل هو الذى تنطبق عليه صفات الإبداع والخلق الفنى.

وينتسب هذا القليل لكبار الأدباء والشعراء من أصحاب الملكة الحية ، أما عدا ذلك من النصوص فلا يخرج عن كونه مجرد تطبيق لقواعد الفن ، لكنه يخلو تماما من كل فن وإبداع وحياة .

وكثيرا ما يطغى الشكل على الموضوع فيأتى المضمون مجهضا واللغة جافة ميتة ، وعندئذ لا يسمى الشعر شعرا بل نظماً لأنه لا يعدو كونه مجرد كلمات منظومة ومرصوصة وفقا لعمود الشعر وقوافيه ، وشعر العقاد هو أفضل نموذج لمثل هذا النظم المتقن وفقاً لأوزان الشعر العربى ، وقد نجد فى هذا النظم الكثير من قوة العبادة وصرامة الأسلوب ، لكننا فى النهاية لا نستطيع أن نتواصل مع المشاعر التى يعبر عنها النص الشعرى .

لأن جهامة الأسلوب وجفاف العبارة وصرامة التعبير ، كل ذلك يحول بين الشاعر وبين توصيل أفكاره والتعبير عن مشاعرة ولا يحقق التفاعل المرجو بين النص والملتقى .

وفى المقابل ، هناك الكثير من الشعراء الذين تمكنوا من صب تجاربهم الوجدانية فى القوالب المناسبة فحافظوا بذلك على الإيقاع الموسيقى دون أن يهدروا التجربة الفنية أو يجهضوها .

وبذلك حققو الكثير من التواصل الناجح مع الجمهور عبر اللغة المرنة ، والأسلوب البسيط الأنيق الرشيق ، وذلك لأنهم أدركوا أن الرومانسية لا تتفق مع الأسلوب الصارم أو التعبير الفلسفى الذى يتسم بالجمود والصرامة والجفاف .

والشعر نفسه ليس من الفنون التى تتحمل المعالجات الفلسفية لموضوع الحب او الأخلاق ، فمثل هذه المعالجات مجالها النثر الفنى أو المقال الفلسفى أو الفن القصصى والروائى .

ففى هذه الميادين يتسع المجال للمعالجات الفلسفية والنقدية

أما مجال الشعر فضيق محدود يرتبط باللحظة المكثفة التى يختارها الشاعر والتى ترتبط بالموضوع الشعرى نفسه ، فالموضوع الشعرى وبعده الزمنى هما الأطار الذى يفرض على الشاعر استخدام لغة مكثفة على النقيض من لغة الحوار المرسل أو المناقشات الفلسفية والنقدية .

وقد نجح " **بيرم التونسى** " إلى اعظم الحدود فى التعبير الفنى عن المرأة والقضايا المتعلقة بها لأنه يستخدم العامية ، ويضفى عليها طابعة الشخصى بأسلوب ساخر متهكم فى النقد وخفة دم متناهية فى الوصف أو الغزل ، أضف إلى ذلك أنه تمكن من التعبير عن اهداف رسالته الفنيه من خلال المرأة كموضوع فنى . ولنبدأ مع " **بيرم** " بالزجل الذى كتبه بعنوان " **النسوان** " لكى نقف على سمات أسلوبه وطريقته فى الغزل ، وطرح القضايا والتعبير عن العلاقة بين الرجل والمرأة على الطريقة المصرية الشعبية :

النسوان

فى كل عام للورد اوان إلا النسوان
بقدرتك نابتين ألوان أبيض وأحمر
وانت اللى تعلم وانا أجهل فيه أيه أجمل
من دى الخدود اللى لا تذبل ولا تتغير
ودى العيون اللى أشهد لك بها واسجد لك
دى خلت الطاغى انقاد لك والمتكبر
والشفتين اللى خالقهم كنت خالقهم
للابتسام ولا رازقهم دنت تحير
العبد يعشق بالقوة وعشق لجوه
كمان جهنم ؟ إيه هوه معناش معشر
بنمتى إنت اللى جاذبنى يا معذبنى
ويا اللى ذوقك يعجبنى لما تصور
لك صنعة فى العين والحاجب بها تتعاجب
وتقول وجود الله واجب فين به يكفر
ولك قوالب فى الأجسام غلب الرسام
ويقلدك بحجر ورخام يلقاك أشطر
يا ست يا أم زناق محبوك وقميص منكوب
حطى على القلب المشبوك إيدك يعمر

ويام نص ملايه حرير والنص يطير
على الكتاف انا عقلى صغير غطى المرمر
ويا للى ساقك يسوى رقاب حارت للباب
ف لون حقيقته إن كان بشراب ولا مقشر
ويا للى خصرك له حركات تقفل شركات
ويضج منها داود بركات لم يحرر
فوقه الحزام متشعبط فيه النبى شديه
لتحت همسة يا روحى خليه يبقى محرر
ويا للى خايفة الفرق يميل فقاقطه المنديل
طيب وصدرك بالهلاهيل ليه متحشر
ويا للى لابسالى جوانتى أربعة سنتى
فى إيه خافيتى وبينتى للى ما يظهر
ويا للى بالدراعات تمشى ولا تسالشى
متشمرالى وما اقدرشى عالمتشمر
ويام شمسية يا عايقة على فين سايقة
يا مرشقة الوردة اللايقة عالمتشجر
هواكى باليسمين هافف وحلق رافف
يصافح العقد اللافف على دى المنحر
يا مسلمين الله يا حريم أنا مالى غريم

غيركم أروح وياه في جحيم يوم المعشر
الدنيا والنسوان وخلاص الراجل لاص
لا طبله ينفع ولا بلاص لو يتكسر
عليه قفا عايز الخيه وخلقه رديه
وجتته الشعرانيه حاجة تقشعر
ولا الشنب والدقن يا هوه مهما حلقوه
باين وعايز لعن أبوه برضك أخضر

هكذا عبر " بيرم التونسى " ، بصدق ، وقوة عن الأنفعال الحى المتأثر بالجمال .

فالجمال فى نظر " بيرم " هو الدليل الحى على كمال الصنعة الإلهية ، ويكفى أن يعقد " بيرم " المقارنة بين الرجل والمرأة لكى يقنعنا جميعا بأن أنفعالة بالجمال له ما يبرره من الناحية الوجدانية ، وهل هناك من ينكر أن جمال المرأة الأسر من الأمور التى تضفى على حياتنا البهجة ، وأن أعظم أسلحة المرأة وجمالها الذى تجذب به الرجل وتأسره حتى تقوده أما إلى الشقاء واما إلى النعيم ؟! ..

ومع ذلك فان الجمال يتنوع ويختلف كما تتنوع النساء وتختلف إختلاف الزهور ..

وهذا التنوع والتعدد والأختلاف من المباهج التى أتتها الطبيعة على الحياة لكى يسعد بها الإنسان وقد عبر " بيرم " بصدق وجمال ورشاقة عن الجمال ..

لكنه خص "العيون" بالتعبير الأجمل فى الزجل التالى:

العيـــون

من العـيـون يا سلام سلم ... شوف واتعلم
تحت البراقع تتكلم ... والدنيا نهار
عيون تقولك قصدك إيه ... بتبحلق ليه
مالكش شغل تمس عليه ... يا راجل يا حمار
وعيون تقول لك أنا عارفاك ... والنبى ما انساك
من يوم ما شفتك م الشباك ... يا جدع يا صغار
وعيون تقول لك روح يا رزيل ... يابو دم تقيل
يابای کبه فی المخاليل ... ياما هم كتار
وعيون تقول لك أنا حبيت ... يا لـلا بنا ع البيت
وعيون تقول إنشا الله ما جيت ... أنا رايحة الزار
وعيون تقولك بالمحسوس ... أنا عايزة فلوس
وإنشا لله حتى تحوس وتدوس ... أنا عاملاه كار
وعيون تقول لك إمشى يا واد ... أنا أم ولاد
وعيون تقول لك عندى ميعاد ... يا السمسار
وعيون بسر الحب تبوح ... كدا بالمفتوح
وتعرف القلب المجروح ... ما عليهش ستار

وعيون تسبل فوق الخد   دى جدف جد

وعمرها ما تكلم حد   عيون أحرار

وعيون تحقق فيها بشوق   تهرب على فوق

بتقول لك أبعد عنى بذوق   نظراتك نار

وعيون ما تعرف زعلانه   أو فرحانة

صباح مسا أهى سهتانه   صاحبة أفكار

وعيون لها ضحكة ف وشك   بس تفشك

وتبص من تحت اليشمك   تلقى المنقار

وعيون كدا يبقم ساهتين   صفر وباهتين

بالشكل دا عيون الخلينين   تضرب بصفار

وعيون تبص وتتسفلق   واقفة شلقلق

وعيون تبريق وتبحلق   عايزين مسمار

ولما كان الجمال فى كل شئ يرتبط بالشباب أو الصبا ، فإن المرأة – ما لم تكن شابة – فانها لن تكون جميلة ، فإذا فقدت المرأة جمالها بفقد الشباب فماذا يبقى لها ؟

هذا ما يعبر عنه " بيرم " فى زجل " العجائز " بتهكمة المعهود وسخريتة المعتادة فيقول :

العجايــــز

يا رب سلطان جمالك يتعبد للذات ... خالص لوجهك لا للنيران ولا الجنات

لكن عبيدك وخلقك يعبدوك لغايات ... صبحوا ونا عبد منهم كلهم ترسات

التاجر أما افتقر صلى وصام الفرض ... والعمدة لما اتزفت جالك وقع فى العرض

والقطن لما تحرق صاحبة سجد على ... الارض وكلهم عالعبادة يطلبوا حسنات

ولما قلت أعملوا بالشرع والسنة ... أضمن لكم يا عبادى الخلد والجنة

جنات بها المتقين بالحور تتهنى ... قام المريض والمكسح بالسبع ركعات

ونا اللى ناوى إذا حققت أحلامى ... أحج لك كل عام ماشى على اقدامى

وأضبط ميعاد الصلا وأمسك على صيامى ... وانفق جميع ما أملكة فى البر والصدقات

تقصف لى عمر المره لو حصلت خمسين ... عالخصوص لو تكون وحشة من الناشفين

تروق لنا الدنيا ويروق لك كمان الدين والخلق ... تستغنى عن ماشطات وعن دايات

تبلى العجايز بحمى حامية تمحيهم ... وإذا اقتضت حكمتك إنك تخليهم

الأمر لك ، بس تطرشهم وتعميهم ... أنت اللى عالم بهم يا خالق الحيات

لقد كتب " بيرم " الكثير من الأشعـار والمقالات والأزجال عن المرأة .

ومن المعروف أن للمرأة فى حياة " بيرم " وأعماله أثراً عظيماً ، يتجلى بوضوح فى كتاباته ، ومنذ البداية نجد أن المرأة عند " بيرم " ليست مجرد موضوع للحب ، أو اللذة ، فقد يتبدى الجمال الآسر فى المرأة كموضوع ، ولكن المرأة فى ذاتها ليست موضوعا ، إنما هى كائن حى يجب أن ينظر إليه الفنان فى ضوء الظروف التاريخية والاجتماعية التى تعيشها المرأة ، هذا ما كان يعتقدة " بيرم " .

ولذلك نجدة يتجاوز الغزل بسرعة ولا يكثر من الأزجال التى يتغزل فى المرأة فيها ، والأزجال التى كتبها " بيرم " عن ضرورة تحرير المرأة ، وضرورة تعليمها ، وضرورة تعليمها التربية الصحيحة ، أو الأزجال التى تعرض فيها بالنقد للمرأة وعاداتها السلبية السيئة أو تخلفها وإنحطاط طبيعتها ، أكثر بكثير من الأزجال التى كتبها فى الغزل والحب مجتمعة .

معنى ذلك إن " بيرم " يعتقد مؤمنا بخطورة الدور الذى تقوم به المرأة فى المجتمع ، أى مجتمع ، فهى ليست من الكائنات العديمة النفع أو العديمة الأثر ، وهى وإن تركت تحيا على هامش الحياة فى المجتمع ، فإنها ستظل تؤثر فيه إلى ابعد حدود التأثير ، وهذا مما يدل على خطورة دورها فى الحياة ، فهى التى تنجب وتربى ، وإذا لم تكن المرأة فى ذاتها متحررة ، متعلمة ، مثقفة ، فالمجتمع كله لن يتقدم ولن يتحرر ولن تتغير نظرته إلى الحياة وقيمها ، وبالتالى سيظل على حاله من الجهل والتخلف والفقر والظلام ، ولهذا آمن " بيرم " بضرورة تحرير المرأة ، وضرورة مساندة الدعوات التحررية ومساعدة أصحابها ، لذلك فهو يحتفى (بقاسم امين وهدى شعراوى) ويشاركهم نضالهم لتحرير المرأة فى الزجل التالى :

بردون يا شعراوى

يا بنت بانى الهرم لمى هلاهيلك
والبرقع اللى انخرم ويا خلاخيلك
يكفى لومان فى الحرم فى قيد خلالخيلك
ما شفت زيك سجين ساكت ومتاوى
غلبت اقول للرجال خلوا المره حره
تخش راخره المجال تفهم وتتدرى
العاملة بنت الحلال ما يضرهاش بره
لكن بتنصح فى مين روس جامدة سنطاوى
راية ولاد العرب فى الأرض منكوسه
طول عمرها والسبب إحسان ونفوسة
والله اللى قال ما كدب نسواننا موكوسة
حتى اللى متعلمين بردون يا شعراوى
جهل النسا بالعلوم خلانا أنتيكة
نفهم فى فن الهدوم رقعة وتشتيكه
وفى البلد عالعموم ما تلقى فابريكة
غير فابريكات الطحين فليحى بدراوى

إن كـــانت أم الـولـد	فى الزار بتـتـبـخـتـر
تجـيـب حـمـار للبلد	فى القطن يتـسـخـر
قـبل الحـمـيـر يتجلد	لـو مـل وأتـأخـر
وسـيـد الشـفـالين	هـو الـورويـاوى
من قلة المصنوعـات	المسـعـدين قلت
وإيـه شـويـه ذوات	بالأمـتـيـاز زلت
وأهل العـمل والثـبـات	اعـمـالهم انحلت
أمـا اللى فـاضل مـين	ده حـبل عـشـماوى
يا بنت بانى القـصـور	راجـل يـناديـكـى
بينه وبينك سـتـور	مـدى أياديكى
وفكى عنه السـيـور	الـلـه يقـويكـى
وكـونى إيده اليـمـين	ف اللى عليـه ناوى

هكذا .. وعلى طريقته الخاصة .. شارك " بيرم " فى الدعوات الإصلاحية والإجتماعية الداعية لتحرير المرأة .

لكنه لم يتوقف عند هذا الحد من المشاركة ، لأنه يعتقد إن المرأة لن تتحرر بمجرد الخطابة والدعوات الحماسية والهتافات الداعية إلى تحريرها ، بل لابد من رسم الخطط وإعداد البرامج المدروسة القائمة على التوعية والتوجية والتأهيل ، فالمرأة تنشأ فى مجتمع شرقى متخلف ، وتشب على أفكار وعادات هى أسس التربية القائمة على الفصل بين الجنسين والتفرقة بين الرجل والمرأة ، ونتيجة لهذه التربية تنشأ المرأة وكان أفكارها تتمحور

حول الرجل والسرير ، فهى لا تعرف لها وظيفة فى الحياة سوى ذلك ؟

فهى لم تحصل من التربية إلا على ما يؤهلها للقيام بوظيفة بيولوجية هى الأنجاب وإرضاء شهوات الرجل ، وهى لا تعرف لذاتها أهمية ولا وظيفة ولا قيمة إلا بارتباطها بالرجل ، والرجل نفسه ينشأ وهو لا يعرف للمرأة قيمة ولا وظيفة سوى إرضاء شهواته وأنجاب الأطفال وتدبير المنزل !!

من هنا كان " بيرم " يعتقد ، شأن كافة أصحاب دعوات تحرير المرأة ، وأصحاب المشاريع النهوضية عموما ، أنه لابد من إعادة تأسيس الفلسفة التربوية ، أى أنه لابد ان تتغير مفاهيمنا عن التربية ، ولابد من أن تتغير الأسس التى نربى أولادنا عليها ، حتى تتغير بالتالى نظرتهم إلى الحياة ، ونظرتهم إلى ذواتهم ، ونظرتهم إلى أدوارهم فى المجتمع والحياة .

فإذا تغيرت نظرتهم تغيرت ممارساتهم وتغيرت حياتهم بالتالى إلى الأفضل ، فالنهضة والتقدم لا يمكن حدوثهم بالهتافات والدعوة إلى التغير ، بل لابد من " تغير الثقافة " ، لابد من ثورة ثقافية تتغير خلالها مفاهيمنا ونظرتنا ومعتقدتنا نحو أنفسنا ونحو الحياة .

وكان " بيرم " يعنى ذلك بالطبع ، ولو حدسا ، وبالتالى كان كان يدرك أن عليها المساهمة فى " تغيير الثقافة " من خلال " النقد " ، وبالتالى بدأ " بيرم " يركز على السلبيات الخاصة بالمرأة ، أعنى السلبيات الدالة على سلوكيات تترجم أنحطاط وعى المرأة وتعكس مدى تخلفها ، مثل إهتمامها بالمظهر دون الجوهر ، والموضه ، والولع بامتلاك الأشياء ، أو الفهم الخاطئ للحرية ، أو تمركز نظرة المرأة لذاتها حول وظيفتها الجنسية، كما قدم "بيرم" فى أزجالة العديد من الصور الكاريكاتورية لشخصية المرأة المصرية فى الحارة الشعبية ، وقدم لنا من خلال هذه الصور الكثير من سمات وخصائص شخصية المرأة وطبيعتها وإهتمامها وطريقة تفكيرها ومكرها وكيدها .. الخ .

وفى زجل " الفساتين " على سبيل المثال : يصور لنا " بيرم " ولع

المرأة بمظهرها ، وشغفها بامتلاك الشياء ، والفساتين على وجه الخصوص ، دون الأهتمام بما يترتب عليه إسرافها فى إشباع رغباتها الجامحة فى الأمتلاك ، وبصرف النظر عن القدرة الأقتصادية للرجل ، وفى هذا الزجل يؤكد لنا " بيرم " بطريق غير مباشر إن هذا الولع بالمظهر وهذا الاسراف فى إشباع رغبة الأمتلاك قد يكون السبب فى تفشى بعض الجرائم فى مجتمعنا مثل الرشوة والسرقة وفساد الضمير .. الخ .

وفى هذا الزجل يقول " بيرم " :

الفساتين

أشوف نسانا اليوم وأصلّى على النبّى

إللى أمرنا نحجب النسوان

مضمون خراب البيت على يد صاحبته

إللى لازمها كل يوم فستان

فستان صباحى سبور فى السوق تلبسه

ساعة ما تطلع تشترى بدنجان !

وللضحى فستان رمادى مشجر

نشرت جرائدنا عليه إعلان

والظهر له فستان زينه قوامها

نهار ما تعزم ع الغدا اعيان

والعصر له فستان لزوم " الحديقة "

عشان تكايد به غصون البان

وللمسا فساتين ما اقدرش اعدّها
تفتح لتاجر فى البلد دكان
ولكل فستان - قال - جزمة وشنطة
وقُبعّه كانت على المانيكان
وللربيع فساتين توافق زهوره
ويا ما فى زهر الربيع ألوان
وللخريف فساتين غوامق مَوَيّرة
توافق الحرّان والبردان
والصيف ولبس الصيف مايوهات مشكلّه
تملا شنطها وزنها أطنان
إدفع يا جوز الستّ كامل مُركّبك
وأسرق وغالط وأرتشى لها كمان

إلا أن المرأة ليست وحدها التى تعرضت لنقد " بيرم " فالرجل أيضا قد نال نصيبه من النقد ، وعلى الخصوص فيما يتعلق بموضوع " الموضه " والتقليد الأعمى لها .

فالمرأة ليست وحدها المولعة بالموضه وبالأمتلاك أو اتباع التقاليع الغربية والأنقياد الأعمى لها ، إنما الرجال أيضا ينقادون ويقلدون وفى هذا يقول "بيرم " متهكماً فى سخرية :

باريس تقول قصروا الفساتين

باريس تقول قصّروا الفساتين نقصّرها
ترجع تقول طولوا ، حلا نجَرّجرها
وفى الشتا - قوّروا القمصان نقوّرها
وفى الصيف زرروا الأرواب .. نزررها

***

وتقول باريس أحلقوا الشنبات ، نحلقها
وتقول لنا الدقن موده اليوم ، نلزقها
وتقول لنا استعملوا الشورتات ، نسبقها
وتقول كمان اقلعوا الطرابيش ، نكمورها
وتقول " فيينا " " ارقصوا " .. نحيى لياليها
وتقول " موناكو " " العبوا " .. تفتح نوادينا
وتقول " جلاسجوا " " اشربوا " .. نسكر لها طينه !
والخمرة قال مش حرام .. والجوزة .. نكسرها

***

عميان وعايزين لنا مجانين .. تسحبنا
ولو يخوضوا بنا الأوحال .. يعجبنا
مين شاف خلاقنا أمم بتعب جزارها

***

يارب تسلم باريس وتصوم تصلى
وتكون موديتها سبع .. ولا طرح .. تُلىّ
عشان ما تصبح " سعاد " و " أم الهنا " و " نيلى "
غير ربنا ذو الجلال .. ما يشوفش ضوفرها

***

لقد كان " بيرم " داعية للتحرر وتعليم المرأة .

ولكن أى تحرر هو الذى دعى إليه " بيرم " ؟ أنه بالطبع لا يقصد أن تصبح المرأة المصرية مثل المرأة الغربية فى كل شئ ، بل هو يريد منها أن تصبح مثل المرأة الغربية فى إيجابياتها فقط ، أما السلبيات فيجب نبذها ، وهذه الفكرة يتضح مضمونها والمقصود منها فى الزجل الذى كتبه " بيرم " بعنوان " ستاتنا " ويقول فيه :

ستاتنا

عشان ما يبقى مقامنا قبل كل مقام
ستاتنا تمضغ لبانه فى الطريق العام
ويحركوا شفتين متلغمطين بأدام
والكحل ده كل عين ، متكحلة .. بجرام
واللبس نايلون فى نايلون من شراب لحزام
والبمب فوضى بيهدم فى النفوس إعدم
والست وياه تطرقع طرقعة بنظام
م الموسكى للصاغة تتمخطر كدا يا سلام !
لما الخواجة باسيلى يقول لها يا مدام !!

ليس المقصود إذن هو ان يتغير مظهر المرأة .. وليس المطلوب أن تقلد المرأة المصرية المرأة الغربية فى مظهرها، أو فى المبالغة فى الزينة او الحركة، وليس المطلوب ان تظل المراة المصرية على حالها وما تسلكه من سلوك ينم عن عدم المسئولية، او يعكس نظرتها المتمركزة لذاتها حول الجنس، إنما يريد " بيرم " للمرأة ان ترتق عن كل ذلك ، وان تفهم إن الأنوثة لا تعنى التبذل ، وإن الدلال لا يعنى الخلاعة ، وأن الجمال لا يتحقق بالأصباغ والمساحيق ، وإن التحرر - فى المقابل - لا يعنى الخروج على النظام ولا الأخلاق الحميدة وهو يكمل هذه الصورة فى الزجل التالى :

بنات اليوم

غلبت أسأل فى روحى عن بنات اليوم
ليه الغضب والتجنى والدلع والنوم
على كراسى النقابة والسهر والصوم
كان مين ظلمهم ، ونزل شعرهم يا قوم؟

***

مين اللى حرَّج عليهم يعملوا شركات ؟
ويأسسوا بنك ، ذو أسهم وذو سندات
ومين محرَّج عليهم يدخلوا الجامعات
فيهم صلاة النبى من كل نوع ، كفاءات

***

ومين منعهم يرحوا حفلة الكوكتيل
بجسم عريان يميل فرقة الابالسة ميل

وطبل جـاز بندهم شـال الملايكة شـيل
ويرجـعـوا لنا تلاتة بعـد نصّ الليل !!

***

فالحرية تعنى الألتزام والمسئولية .. هذا ما يفهمة " بيرم " ويعنيه ، وهو نفس ما يريد أن يوصله إلى الشباب وإلى الشابات .. وهـو يقصد أن التحرر لا يعنى التهتك او الإنحلال ، وأن التقدم والتمدن لا يعنى الأنهماك فى الحفلات والذهاب إلى المواخير والمراقص والاستماع إلى موسيقى الجاز والسهر إلى ما بعد منتصف الليل ، كلا .. وليس التحرر هو الأنغماس فى المادية على النحو الذى يصوره " بيرم " فى الزجل التالى :

بنت مجتمع

تتقل روج شفايفها   وتتكلم فرنساوى
وروب " جابونيز " على كتافها   يزل العقل يا غاوى
وحته فيلا فى الدقى   ترد الروح وتحييها
ويالا يا مدام شقى   على القلاخيش وادعيها
على حفله ميلاد ميمى   وسهرة بريئة ع البوكر
وفيها تجرى كُتّيمى   حاجات تحدق على طوكر
تشوفها شريكه فى دكان   ومَرّة مساهمة فى مصنع
ومرّه خبيرة فى الطيان   ومَرّة خبيرة فى المدفع
ويوجد عندها ارشيف   ودفتر يومى وإدارة
لكل وضيع وكل شريف   يودّوكى ، يا سمسارة
وتخفى النتنه بالفتنه   وتخرج م السبق قالمة
وقولى يا مجلاتنا   بنات المجتمع طالمه

ولأن التقدم يرتبط بالتحرر ، والحرية تعنى المسئولية والإلتزام .

يؤكد " بيرم " على إن فقدان الحرية ، وعدم التحرر ، والرجعية ، والجهل كلها من العناصر التى تؤدى إلى الفوضى السلوكية ، أى الهمجية ، وأن الفوضى فى البيت تؤدى إلى الفوضى فى المجتمع وكل ميادينه ومؤسساته، وإن الفوضى أساسا سببها المراة فى البيت، لأنها تربى من خلال سلوكياتها .. ولذلك يرسم لنا " بيرم " الصورة الكاريكاتورية الساخرة التالية :

الفوضى أصل البهدلة

تقول فى بيتنا أو بيتكم هى هى المشكلة
ستات حاجتها كلها عايشه وعيشه هرجلة
ستات عجايز او صبايا بعضها متكتوله
خلوا عقولنا زيهم متشوشة ومتبرجلة

***

درج المعالق يتحشر فيه قطن طبى ومبشره
ووقة السكر على ضهر الدولاب متبعترة
وعلبه السكر يا عالم تتركن فوق صندرة
فيها مسامير واسبرين وجوز شراب ومكحلة
داسته إبر جاز تختفى وقت الوابور ما ينطفى
وداسته الكبريت يا هانم تاخدى منها وتحدفى
وجوزك الخوق فى شرابك ياخده هوه يترفى
والراجل المسكين وراه ميت الف شغله معطله

وأرض بيتنا كلها تضرب وتقلب بالعبر
الطفل يحبى والعتبه مكرّ خيط فيه جوز إبر
أو كستبان - أو قرش صاغ - لحدّ ما بيان الخبر
عند الأطبّا والأشعة فلوسها نايبه متلتله

***

طول عمرنا فى الهم دا ونضح علينا الهم ده
كل المصالح والمتاجر فى البلد ماشيه كده
دقىّ على طارك وقولى ولا تخافيش يا معدده
الفوضى أصل الملطمه .. الفوضى اصل البهدلة

***

ويؤكد " بيرم " هذا المعنى فى الكثير من أزجالة .

وينتقل إلى رسم صورة أخرى للشارع المصرى وما يحدث فيه من فوضى وسلبيات سلوكية تدل على التخلف ، والإنحلال الخلقى ، والخروج على الآداب والتقاليد المرعية التى يجب التمسك بها والتى كانت سائدة قبل ذلك لكنها انقرضت نتيجة لتفشى الأمراض الاجتماعية والخلقية المختلفة .

طهروا الطريق

الشــــوارع والحـــــوارى خـــاريه قـــالبــه بالنســا
والألوفـــات رايحـــة جـــايه مــن بـنــات المـدرســـــــة
وابـن زُهـره وابـن بمبـــــة مــــســـتـــغـلين المـالســـه
كل كلمـــــة البنت منهــــا تمشى راســــهــــا منكّســـه
ابـن زهــرة لابـن بمبـــــه مـــاسك أمُّـــه باســـمــــهــا
ويقـــبـــيح اللفظ يوصف كل حِتّـــه ف جـــســـمــــهــا
وصف لو تفـــهم مـــعــــانيه الأفـــــاعى يســــمُّـــــهـــا
واللى سـامـعين يضحكوا لهم أو يقـــولــوا : كـــويّســـه
امّـــا بمبـــه وامّـــا زُهـرة اللـى لابســــين الـطـرح
شــغلوا الكـارو المبـــارك فى العـــزا وفى الفـــرح
كـــارُّو بيطبّل وكـــارّو م الصـُّـوات حسُّـه اتنبح
لجل مـــا يتم التجـــانس والنظام والهـندســــــــة !
كـــام بذئ اللفظ ســافل تسمّى نفســه ابن البلد
يا بلد قــــولى على ابنك ده يا ريتـــه مـــــا اتولد
لو يكون لـه أم غـــيرك كـــان يومــاتى يتـــجلد
يا للى لمّا النسل يكتـــر تطلعى لى مـــخـــمّــســة

والزجل السابق .. يدل على أن " بيرم " كان يؤمن بضرورة قيام الفن بدوره فى إصلاح المجتمع ، فللفن وظيفة متعددة الجوانب ، ورسالته لا تقتصر على الثورة السياسية ، أو تحرير المجتمع من الاستعمار أو الحكومات المستبدة ، إنما للفن رسالة إجتماعية أيضا ، ولا تكتمل الرسالة الاجتماعية إلا بأن يكون للفن أيضا رسالة أخلاقية .

وبهذا تكتمل العناصر التى تتكون منها فلسفة " بيرم " فى الفن ودوره ومهمته ، فرسالة الفنان لا تتجزأ ، ودوره لا يقل عن دور المصلح الاجتماعى ، او الفيلسوف صاحب الفلسفة الشاملة المتكاملة الجوانب والأركان .. ولهذا السبب لم يترك " بيرم " أى جانب من جوانب الحياة المصرية فى أبسط تفاصيلها ، فقد تناول حياتنا فى كل ما كتبه ولن تغفل عينه اليقظة الراصدة لحظة عن رصد ونقد الحياة اليومية المصرية وتصويرها والتعبير عن نبضها فى كل كبيرة وصغيرة .. وأنظر - على سبيل المثال - رصدة للظاهرة التالية :

ما شفت لك يا آنسه شبيهة فى كل النسا

فى الأتوبيس ، قعدت قصادى مهندمة
لونها ارتوى من الشفق ، خمر السما
وشفتين ، مع العينين ، متبسمة
وحاجبين ، من غير قلم ، مِقلّمِه
عنهم عمى " سقراط " ، يزيد إيده عمى
ما شفت لك يا آنسه شبيهه فى كلّ النسا!!
نطت وحطت جنبها ، فلقة قمر
قوام من القوقاز ، وأنف من مُضر
ووجنتين ، فيهم مخايل م التتر
وجيد " نفرتيتى " ولكن ده حجر
وخصر من سنباط ، جعان جوع الفجر
تقول يا ربى ، دى ملاك والاّ بشر ؟
ليه يا للى كنتى كويسة بقيتى ذى الخنفسة
طلعت علينا بعد دول ، بنت البلد
داست على اهل البريمو يا ولد
والترسو كله انشال معاها وانهبد
وكل راكبه وجهت نظره حسد
والأوله والتانيه راحوا فى الهدد

ربك جاعلها مدرسة!
نتلقى فيها الهندسة !
والهندسة بتقول مدينة صغيرة
فيها السكن والقوت ، تساوى لندرة
والكوخ إذا داراك ، والا الندرة
ما يزيد عليه فى شئ ، قصر الجوهرة
عندك مرة كون مقتصر على المره
مع العقاب تجدها شمعة منورة
وأطرد شيطان الوسوسه
وقول مراتى كويسة

وهكذا .. قال " بيرم " أن للمرأة فى الحياة المصرية أهمية خاصة جداً .. قال هذا بطريقته وأسلوبه الخاص ..

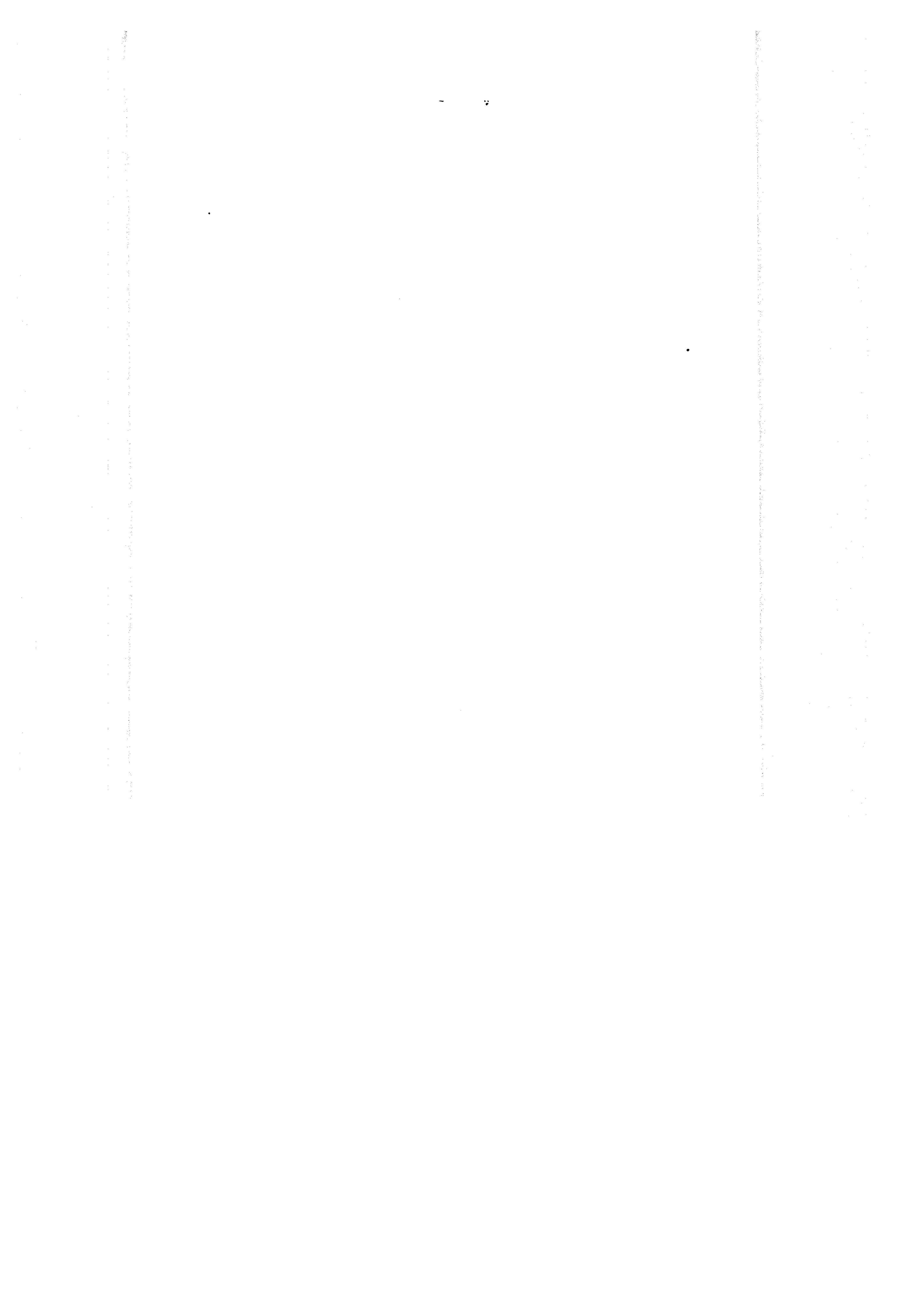
وصور لنا أنفعال ركاب الأتوبيس بوجود المرأة الجميلة ، وأنتهى إلى ان المراة " مدرسة " وجدت لكى نتلقى فيه الفن والعلم

لكنه لا يتوقف عند حدود المدح والغزل والثناء ، أو رصد الظواهر .. إنما اراد " بيرم " ان يحقق رسالته الفنية من خلال " النقد " ومن خلال تصوير الحياة المصرية لكى تتحول اعماله الخالدة إلى سجل حى حافل بكل تفاصيل حياتنا ، ولكى تظل أزجالة هى النبض الدائم لحياة الشعب المصرى.. ولكى ندلل على هذا علينا أن ننتقل إلى دراسة ومتابعة " صور الحياة المصرية " فى شعر " بيرم " .

الفصل السادس

محمود بيرم التونسى

(صور الحياة المصرية
فى شعر بيرم)



بيرم والنقد الاجتماعى

من استعراضنا السابق لرحلة " **بيرم** " وكتاباته يتضح لنا أن المحور الرئيسى لكل إبداعة هو " **النقد** " .

والنقد عند "**بيرم**" تتعدد انواعه ، لكن أهمها النقد السياسى والنقد الاجتماعى، لأنهما يشملان أنواع النقد الأخرى ، ولقد رأينا إن "**النقد**" قد بدأ عند " **بيرم** " من القصيدة الأولى التى كتبها عن " **المجلس البلدى** " وأنه ظل موجودا حتى أخر كلمة كتبها " **بيرم** " فى حياته ، ومعنى ذلك أن النقد عند " **بيرم** " وسيلة أساسية لتحقيق هدف من أهداف الإبداع هو " **الثورة** " أو " **التغيير** " أو " **الأصلاح** " .

فإذا لم يكن للفن عند " **بيرم** " وظيفة إجتماعية لما كان قد لجأ إلى النقد إلا إلماما أو عند الضرورة .

وقد راينا - فيما سبق - كيف استخدم " **بيرم** " النقد فى المجال السياسى ، فى نضاله ضد الاستعمار ، او ضد الحكومات الملكية الطاغية والمستبدة ، أو ضد كبار رجال الأقطاع والباشاوات والوزراء وغيرهم من رؤوس الفساد فى مصر .

أما النقد الاجتماعى فقد رأينا ، ايضا ، أحد وجوهه ، عندما استعرضنا

موقف " بيرم " من المرأة ومكانتها ودورها فى شعره ، إلا أن النقد الاجتماعى عند " بيرم " لم يستفد من موضوع المرأة فحسب إنما كانت له إهتمامات أخرى كثيرة ومتنوعة سنتعرض لبعضها فى هذا الفصل ، فالنقد الاجتماعى عند " بيرم " يهدف إلى رصد ظواهر الحياة المصرية ، ونقد سلبياتها ، التى تعكس إنماط التفكير الشعبى فى البيئة المصرية ، وهذه الأنماط الفكرية هى التى يهدف " بيرم " إلى تغييرها بنقدها أو السخرية منها بتهكمة المعهود .

فالنقد هو " المعول " الذى يرسم به " بيرم " صور الحياة المصرية ليعيد تشكيل الواقع من خلال الرؤية الإبداعية متجاوزا الأكتفاء بمجرد تصوير الظواهر ورصد المظاهر إلى الغوص فى أعماق الحياة اليومية بكل تفاصيلها والألتصاق بنبض الشارع والالتحام به ومعايشتة ومن ثم التعبير عن همومة وقضاياه ، ونقد سلبياته ، ولذلك فنحن نجد " بيرم " يبدأ أولا برسم صورة عامة للشارع المصرى ، أو بانوراما للحارة المصرية بكل ما فيها من العناصر البشرية وغير البشرية ، ويصور لنا الفوضى التى ترتبط بين هذه العناصر وبين فوضى سلوكيات البشر أنفسهم ، ثم ينتقل من بانوراما الشارع ، إلى تصوير ونقد التفاصيل الخاصة جدا لسلوكيات الناس وطريقة تصرفهم وحياتهم وتفكيرهم ، فى الاتوبيس ، او داخل البيوت ، او فى علاقتهم السرية، ثم ينتقل إلى تصوير ونقد أحوال مختلف الطبقات الاجتماعية ، ثم المقارنة بين مدارسنا والمدارس الغربية ، ويصور حياة أصحاب الحرف ، وأصحاب الشهادات ، وينقد هؤلاء وأولئك ، ويتناول أيضا ظاهرة الدروس الخصوصية ، كما يتناول العديد من العادات والتقاليد الشعبية السيئة المرتبطة بالخزعبلات والخرافات التى لا طائل تحتها ، ثم يقف عند ظاهرة " النفاق " الاجتماعى فى مظهرة الدينى خصوصا فى رمضان ، وينتقل من رصد ظاهرة النفاق إلى رصد ظاهرة " الفقر " وتأثيرة على قيم العفه والشرف والأخلاق

فهو يرصد بدقة ، ويحلل بحدة ثم ينقد بقسوة تخفف من ضراوتها السخرية والعبارة الخفيفة السلسلة المرنة المرحة التى تجعلك تضحك على نفسك فى اللحظة التى تتلقى فيها ضربات النقد القاسية .

وهكذا كان " بيرم " مثل الجراح الماهر الذى يجرح المريض ويشرحة لكى يشفى علله فى النهاية ، ولابد طبعا لهذا الجراح ان يكون على معرفة كاملة بالمريض .. وهذه المعرفة نجدها متجسدة فى الزجل التالى :

يا ابن البلد

يا مصر يا للى جمالك   جالب السوّاح من بَرَّه
جايين يقضوا ليالى   كلها أفراح ومسرة
جايين يشوفوا جهودك   إيه فى الإصلاح يا حرة
ويشوفوا آثار تاريخك   واللى عدى وراح بالمرة
يلاقوا لبشة قصب   فى شارع الأهرام ممصوصة
وبذرة المنجة ، ويّا   بذرة الشمام مفعوصة
وتين بشوكة ، قشورة   فى الطريق العام مرصوصة
بلاوى أنواع لكسر   الوسط والأقدام مخصوصة !
يلاقوا ع البسكليت رابط   تلات خرفان جزارها
يتلوى بيها ، ويحجل   فى ميدان سليمان فى نهارها
يكرهك فى البتلو والبقر   والضان منظرها
وكل ما يلمسه من بدله   أو فستان .. يزفرها

واتنين من البوهيجيه مشبوكين فى هزار ومهارشة
واحد ورا التانى شمر جلبيته وطار بالفرشة
يتجس فى عابر سبيل وبيته المقدار على فرشه
ولا باكار ينكسر وتبات كده يا باكار فى الورشة !
وانت يا قهوجى يا صبوه يا مخدوم فى القهوة
تدلق ماجور قهوتك فى الشارع المزحوم على سهره
تلغمط الناس جميعا من وجوه وهدوم بالتنوه
واللى يعارضك تقابله بالشكل والشوم والقوة
وع الرصيف النضيف الضهر ناس قاعدين بيتغدوا
وجنب قشر البصل والسرات والسردين .. يتمدوا
لا بالنصيحة ولا بالزجر والقوانين يتصدوا
وتنادى ساعتين عليهم إصحوا يا نايمين ما يردوا !!
يا بن البلد دى البلد مكتوب عليها اسمك
وزى ما تكون شوارعها يكون رسمك
حافظ عليها كما تحافظ على جسمك
لا تشمت الناس ولا تفرح عليك خصمك

تلك هى البانوراما العامة التى رسمها "بيرم" للحياة فى الشارع المصرى .

وهى تتضمن معرفته الكاملة بالحارة المصرية، وتتضمن خبرته وتجاربه الشخصية التى عاشها فى الحارة المصرية، فى السيالة، وفى السيدة زينب، وفى الأزهر، حيث أختلط وعايش جميع الطبقات ومختلف أهل الحرف والصنايع..

واندمج معهم دون ان يغفل لحظة واحدة عن رصد سلوكياتهم وتحليل افكارهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض وبالبيئة التى تضمهم .

ثم ينتقل " بيرم " بعد ذلك من هذه البانوراما إلى رصد سلوكيات الناس فى مواصلة كانوا يسمونها " السوارس " ويستخدمونها للانتقال اليومى ..

فيقـول :

ركاب سوارس

ركـاب سـوارس بعـيـد عنكم شلق هلافـيت
والعـبـد لله مـعـاهم وابن حنت حـتـيت
أول مـا نـركب يـدور القـفش والتـنكيت
وإن طالت السكة نحكى لبـعـضنا حـواديت

***

قـصـدت يوم الحـسين أشـرب هناك خـروب
جـات قـعـدتى بين جـدع عـايق ، وبين كـركـوب
وشـابه فى الوش قـاعـدة ، وابنهـا المقلوب
بيـعـوى زى إللى راكـبه سـتـميت عـفـريت

***

طلعت لنا شابه بص لها اللى جنبى وساح
طلع كمان بعد منها شيخ بلد فلاح
بحملة خرجين وموهين حطهم وارتاح
قال العجوز اللى جنبى : سوق بقى يا بخيت

***

القافلة سارت تلملم كل صنف وصنف
فى كل خطوة والتانية يتشعبط علينا جلنف
وواحدة فى حضنها قرطاس يزك الأنف
قرطاس ملان بالكلخ والعنكة والحنتيت
يا خلق لسه الولد نازل بكا وعياط
والوش غرقان لشوشتة فى عماص ومخاط
الحلوة قالت لأمه : يا ختى ابنك شاط
قالت : عايزنى اشترى له ادلعدى كتاكيت

***

قال الأفندى هامع ابنك دا طالع ديك
الحلوة قالت هيهئ والديك مالهش شريك
الأم قالت دا بختى فى العيال دا عاديك
دايما ماسك لى الصوات قال ده زمن تصويت

***

الحلوة ساوت هدومها يعنى انا نازلة
لفندى بالمثل ساوى البالطو والبدلة
وقف سوارس ونطت ستنا قبله
والواد ورا والجماعة دوروا التلفيت

***

كان فى الجماعة جدع أهبل نطق فى الحال
وقال تمام يا غجر ، معلوم ، تمام أمال
اتقل يا واد ، مش كده ، بزيادة يا ختى دلال
آه يا غجر ، يا شلق ، يا دون ، يا عكاريت
قال العجوز يا بنى خلى الخلق للخالق
قال أنت مالك يا بارد ، قال حتتخانق !
مهو أنت أهو فى اللى جانبك متفرز زانق
كان حد قال لك احم ، أو حد قال لك كيت

***

أهل الغرام حودوا والعاطفة دارتهم
وأهل السوارس فى حسرتهم وغارتهم
ناس بالسلام فى الزقاق لاهين فى حادثتهم
وناس على الحادثة ذاتها دوروا الشلاليت

***

قـام رد شـيخ البلد ، قـال : يا جمـاعـة يا هوه
بدل مـا تتـعـركـوا كنتم تنزلوا تحـوشـوه
عـبـال مـا تهـرب كـده ولا كـده .. أيوه
لو كـان ده فى الفـلاحـين كـان كلهـا . نبـابيت

***

قـالت أم الولد : اهل البلد عـايبـين

***

لقد جسد " بيرم " الصورة بكل دقة وبراعة كما رسم صورة الشارع المصرى بكل دقة وبراعة .

وإذا كانت بانوراما الشارع تدل على الفوضى والهمجية وعدم الالتزام والقذارة وعدم الحرص على البيئة ، فإن الصورة التى نقلها " بيرم " لركاب السوارس تعرض لنا بكل دقة الهمّ المسيطر على ذهن الناس ، فالتفكير عموما يتبدى من خلال اللغة ، وركاب السوارس وما دار بينهم من الحوار والحديث لم يكن لهم من همّ سوى الهاجس الجنسى ، وقد حرص " بيرم " على أن يجمع فى هذا الزجل بين عدة شخصيات من طبقات مختلفة ، منها الأفندى ، وشيخ البلد ، والشاعر المثقف ، والأبله ، كما حرص على أن تكون أعمار النساء متفاوتة .

وكانت النتيجة ان الجميع على أختلاف الطبقات والأعمار لا يشغلهم سوى نفس الهاجس الجنسى ، والموضوع هنا بالطبع لا يعنى الجنس وحده ، إنما يخفى الكبت الجنسى فى طياته مختلف أنواع الكبت الأخرى ، كما يعكس فى التحليل الأخير ما تعانيه مختلف طبقات الشعب من صنوف العجز والقهر والكبت والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك من

هموم مختفيه فى طى الهمّ الجنسى ؛ وإلى هذا المدى كانت براعة " بيرم " فى رصد الظواهر وتشريح المجتمع وبنيانه النفسى والاجتماعى من خلال ظواهرة ومشاكلة .

مدارسنا ومدارسهم

فى أرضنا للأجانب ، ألف إسكولة
يخرجوا باللوف من غول إلى غولة
عارفين لجلب المكاسب ستميت حيلة
ويجمعوا من جيوبنا المال بالكيلة

***

وأحنا ، وزارة معارفنا أم هليلة
ام الحيطان والبيان ، والحطة والشيلة
تاخد ولادنا ، ويفلوسنا ، وبالتيلة
أشطر ما فيهم يقول ، يا ست وسيلة
شوفى لنا حتة وظيفة تستر الميلة

وفى الزجل السابق يتناول "بيرم" مشكلة محددة هى مشكلة "التعليم".

ويعقد المقارنة بين مدارسنا ومدارس الأجانب، ويشير إلى ظاهرة غاية فى الأهمية وهى ان مناهج التعليم التى نتبعها فى مدارسنا ليتعلم التلاميذ على أسس علمية بحيث يتشرب التلاميذ المناهج الصحيحة ويتعلمون التفكير العلمى السليم، فهم يتخرجون من المدارس وكأنهم لم يتعلموا اى شئ، ولا يؤثر التعليم فى تغيير تربيتهم التواكلية، فيعتمدون على الحكومة فى توظيفهم.

وتلك كارثة قومية لازلنا نعانى منها إلى يومنا هذا ، ونظراً لخطورة مشكلة التعليم فقد تناولها " بيرم " مرة أخرى ..

لكن بصورة مختلفة فى الزجل التالى :

الدبلوم

يقول الفتى التلمذوذ بتاع المدارس
العايق الكابتن بتاع التيم

***

يا مين يبادلنى وياخد شهادتى
بجلبية ولا بالطو قديم

***

واخد شهادتين إبتدائى وثانوى
ومش عارف اكسب لى ولا مليم

***

تسع سنين اتربى فى القحط والشقا
يا ريت أهلى كانوا ربوا بهيم !

***

والله البهيم ينباع ، ويولد وينديح
ولا يلزمة غير حزمة البرسيم
باع على ابويه النص بيت اللى حيلته

وأمى راخره باعت البراريم

***

سوق الوظايف فين يا طاهرة يا سيدة

شبعت دوخة واكتفيت تلطيم

***

حافض بروجرام الصياعة الموضب

توضيب مهندس مستخبى لئيم

***

يطلع التلميذ بين البنت والولد

لا هو صاحب صنعة ولا هو غشيم !

***

واللى يتمم فى باريس ولا اندره

إن كان أبوه عدمان ولا يتيم

***

يلم له قرشين ويفتح دخاخنى

يبيع سجاير فرط بالملاليم

***

إبعت لنا الفباريك إلهى من السما

هى اللى تغنى فقرنا يا كريم

وينتقل " بيرم " بعد ذلك إلى شريحة أخرى من شرائح المجتمع ..

أنها شريحة النشالين والمناصرة ، وبسخريته المعهودة يضيف " بيرم " شريحة " رجل الشرطة " إلى طائفة النشالين وكأنه يومئ إلى أن المشكلة ليست مشكلة هذه الطائفة ، إنما هى مشكلة تدنى المستوى الاقتصادى .

أو مشكلة الفقر الذي تسبب فى وجود هذه الظاهرة وغيرها من ظواهر الفساد الاجتماعى .

النشالين والمناصرة

النشالين والمناصرة والحرامية
أكتر من البياعين ومن الصنايعية
مقسمين البلد أقسام نفوذ وخطوط
وكل فرقة لها دايره .. ودواريه !

***

من نشالين فى المحطة يمسكوا الأبواب
ويتلمهت مرحبا يستقبلوا الركاب
تطير فلوس الغريب ما بين سؤال وجواب
أو ينذبح بالطريقة الأمريكانية !

***

ونشالين بالترام تغتص ، والأتوبيس
محسرين العباد ع المحفظة والكيس

وكل خط بجماعة وللجماعة رئيس
يفرس صوابع إيديه فى عينك وعينه
وصنف للسيارات متجمعين فى جراج
لابسين بدل زرق وهباب الوجوه ماكياج
بيجوا فى عز النهار ويوضبوا المونتاج
ويشيلوا منها العجل أو تنسرق هيه

***

وناس لفتح المنازل بس والدكاكين
منهم على باب حارتنا ، أربعين ، خمسين
دكان دخاخنى النهاردة مين
ح ينخرب بيته ويشطب فى فجرية

***

وفرقة للأسطحة دول كلهم أحداث
تطلع فى شمس الضحى تجمع غسيل الناس
إن بيتوك بالقميص ما بيتوك بلباس
خلوا الغسيل انشره والمه بأديه

***

أموال تضيع كل يوم وبيحسبوها ألوف
مثبوتة فى قهوة شاوى نص خروف

يعــزم علـى " بعــضـهـم " فـى الروحــة والجــايه
لو كنت مـخـبـر مـاهيـتى خـمـسـة سـتـة جنيـة
ويقــولوا هـات الحــرامـى والحــديد فـى إديه
لا يقــول لـى عــقلـى ح تقــبض م الحكومــة إيه
مـا تقـول مـا شفـتوش وتاخـد خـمسـة فـى الميه !!

***

وعندما تتفشى الأمراض الاجتماعية فى المجتمع فان مظاهر الفساد والظواهر السلبية تكثر وتتعدد وتتنوع وتطفى فى سائر المجالات ، وهذا ما يريد "بيرم" أن يقوله من خلال رصدة لمختلف مظاهر الفساد أو السلبيات ..

فالبنيان الاجتماعى لا يتجزا والفساد فى بعض أجزاء منه لابد أن ينتقل إلى الأجزاء الأخرى إذا لم يسرع المجتمع إلى إصلاح نفسه من خلال مؤسساته ، والدليل على ذلك هو أن فساد التعليم وعدم صلاحية مناهجة يترتب عليها الكثير من الأثار السلبية الخطيرة .

ومنها على سبيل المثال تفشى ظاهرة الدروس الخصوصية التى تناولها " بيرم " فى الزجل التالى بسخرية صارخة وتهكم عظيم ، فقال :

درس خصوصى

جـحلوف دخل من شندويل بخلقـتـه المكلبظة
فى بيت ولد ، أبوه مـريض والأم طـابيـه ملظلظه
وبنت تانية فى البيجامـة قايمة قـاعدة مقلوظه
ولما يدخل لـه الغـدا يا خـدله منه مـوعظه
بفتيك، بانيه، يا هلترى مخصوص عشانه تطبخة؟

***

يحضر صاحبنا فى الصباح وغيره يحضر فى المسا
راخر معقد مسألة فى الجبر والا الهندسة
يا باعت ابنك مدرسة جعلت بيتك مدرسة
استاذها يقبض اجرته واكل مجانى ونسا
وبعد ده كله الولد ياخد شهادة تدوخه !!

***

المساكن الشعبية

هاريتـــونا يا عـــالم يا ذوات   يا ملوك مـــالكين العـــمـــارات
لميـــتم كل الجنيــــهـــــات   وفـــقـــرتم حـــتى البـــهـــوات
الشـــقـــة العليـــة أم صـــالون   والبـــاقى فـــرانك ويلكون
اجـــرتهـــا الله يكون فى العـــون   مـــا تخليش حق الكرات
تكسب يا مـــوظف خـــمـــسين   منهم تتـــاوى بتـــلاتين
او تسكن فى " الكحكيـــين "   مـــساكين أصحـــاب الكرامات
يا زمـــالك وطى الأســـعـــار   ويا جـــاردن ســـتى يا جـــبـــار
ويا دقى يا مـــتـــولع نار   على بابكم حطوا اليـــافطات
الثـــورة يجـــازيهـــا بخـــيـــر   ح تذلك يام اســـانســـيـــر
والفـــيـــلا أم جنينة وطيـــر   اجـــرتهـــا باربع شلنات !!

وفى الزجل السابق تناول " بيرم " مشكلة من اهم مشاكل المجتمع المصرى .. وهى مشكلة " المساكن الشعبية " .

وهى مشكلة قديمة من مشاكل الشباب فى مصر ، ولازالت هذه المشكلة أيضا كغيرها قائمة إلى يومنا هذا ، وهى تعكس مشكلة أخرى لا تقل عنها خطورة وهى مشكلة الاقتصاد المصرى المنهار ، ولذلك تناول " بيرم " المشكلة بسخرية وتهكم أعظم عندما قال أن الثورة ستحل المشكلة وستجعل الفيلا أم جنينة وطير أجرتها أربع شلنات !!.

وكما ان المشاكل فى المجتمع لا تتجزأ ، فأن الحلول أيضا لا تتجزأ ، ولذلك لا يجوز البحث عن حل لمشكلة دون أن تكون هناك خطة شاملة كاملة لحل جميع المشاكل وعلاج المجتمع من جميع أمراضه ولتحقيق العدل الاجتماعى والرخاء والتقدم ، على أن يبدأ العلاج بالمشاكل الاساسية الكبرى وليس بالتمسك بتطبيق القانون فحسب على حساب البسطاء والفقراء كما يقول " بيرم " فيما يلى :

فى الطريق

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جاية من شربين
شايلة على كتفها عيل عينيه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
أيه الحكاية يا بيه؟ جال .. خالفت الجوانين ؟
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين !
يمزعوا فى الجيوب ويفتحوا الدكاكين ؟
أسأل وزير الشئون والا أكلم مين !

زفة المطاهر

يا أهل ودى فلقتونى ... يا مسلمين غلبتونى
إن عبت فيكم تلومونى ... وتجعلونى مع المجانين
قلتولى دحنا أذكيه ... وعندنا حسن النيه
والمصرى يتمد بمية ... م الناس أخص الشرقيين
أمال دا أيه اللى بيحصل ... دى حالة عايزة تتفصل
داء السخافة متأصل ... فينا وماسك فى الشرايين
يشوف يوماتى بعنيه ... فى السكة ساعة العصرية
موكب وفيه ١٠٠ عربية ... راكبين عليها عيال حافيين
تعدى قبله الجمالة ... والطبلة فوقها شغالة
والنقرزان والرجالة ... من الفتوات الصايعين
وبعد منها جمل أزعر ... وفوقه عبلة مرات عنتر
قدامها شيبوب يتمخطر ... وف وسطة طزينة سكاكين
بعدين تفوت الرفاعية ... والمجنونين والصعطليه
والنشالين والحرامية ... ويتوع أبو زعبل رخرين
ويشوف بقى آخر الزفة ... حنطور عليه كشمير لفه
وعربجى ومملوك خفة ... عليه زواق ورد وياسمين

وفيه ولد جربان أعور قاعد يمخط ويبربر
وزر طربوشة أزعر وكله جاله زى الطين
أبو الولد شايل الراية وأمه شايلة الدفاية
والملح شايلاه الداية تطس فى عيون الماشيين
يبقى الولد زى النسناس وتخاف عليه من عين الناس
تعالى ساعدنى بمداس ورن أحبابنا تسعين
وبعد يوم من دى الفارة تلقى المطاهر فى الحارة
يعجن وسخ فى الفخارة وإيديه على الوحلة لازقين
والخنفسة فى إيده تلعب أما الدمامل شئ أعجب
القرن إن شافه يهرب ويفتخرع البنا دمين
الواد بيحبى حدى بدى والحاج عيسى الحلاق جى
أعمى نظر ما يشوفش الضى وكلبتينه مصديين
جابوا المطاهر يقطع له وابو المطاهر يدفع له
وأم الولد تتشخلع له والباقى بالزغاريت راقعين
هات الكنافة يا متولى يقول له فين هيه قول لى
يقول له عندك عالعالى أرمح قوام يا بن الملاعين
يروح يجيبها فى صينية نحاس عتيقة مصدية
اللى يطول منها وقية بيات مغطى يا مستمعين

فى " زفة المطاهر " رصد " بيرم " ظاهرة من أكثر الظواهر انتشاراً فى الحياة المصرية .

وهى ظاهرة دالة على مدى تمسك الحارة المصرية بالمظاهر والعادات الشعبية والطقوس المرافقة لها ، مهما كانت هذه الطقوس خرافية أو ضارة أو لا فائدة منها ، فناهيك عن الضجيج الذى يحدث فى زفة المطاهر ، فهى عادة خطرة إذا لم يقم الطبيب بنفسه بها ، خاصة وأن الذين يمارسون هذه المهنة ليسوا من المؤهلين ولا هم على درجة من النظافة .

وقد وصف " بيرم " سائر المظاهر الدالة على مخالفة مبادئ الوقاية من الأمراض فى هذا الزجل لكن بصورة كاريكاتورية مثيرة للضحك على الرغم من بعدها التام عن المبالغة فى تصوير الحدث وما يرتبط به من طقوس ضارة أصلها الخرافات الشعبية المرتبطة بطبيعة الشعب .. تلك الطبيعة التى يصورها " بيرم " فى زجل آخر بقوله :

من كلمة هايفة

من هفوة أو كلمة هايفة بتعمق ونقوم
نسب وندب ، ويدور العراك بالشوم
وكل محموق وله فرقة تقوم بهجوم
من قبل ما تعرف الظالم من المظلوم
تبقى الشرارة حريقة والسحابة حسوم
لا شركة تنجح ، ولا عيلة صفاها يدوم
ومنين نشوف العدل ولا السفينة تعوم
مادمنا فوق قلبها قاعدين لبعض خصوم
تضحك علينا الحدادى فى السما والبوم

***

وهكذا برهن " بيرم " على معرفته التامة بالطبيعة المصرية .

وهو فى الزجل السابق لا يصور هذه الطبيعة إنطلاقا من نظرة متعالية ، بل على العكس .

فهو يصورها لكى يدفعنا إلى الضحك من أنفسنا وتغيير سلوكياتنا ، ويؤكد بطريق غير مباشر على ضرورة نبذ العصبية ، والأندفاع ، والتهور ، والحمية غير المبررة ، والميل إلى الغضب السريع والخصومة بغير اسباب موضوعية .

فهذه كلها من عناصر الطبع الفاسد والشخصية غير الناضجة المزاج الهوائى المتقلب ، وهو يؤكد هذا فى الزجل التالى :

باريس خلاص

يا مسلمين لما اسكندر حكم على الدنيا ودبر
شاف المداين واتخير إسكندرية وسماها
يونانى ويحب الفارة ورخره زيه أم مناره
جبار وعاشق جبارة طلع هواه وفق هواها
اسكندر اللى بجنودة الشرق والغرب ف إيده
والإنس والجن عبيدة بإسكندرية يتباهى
وافقت عظمته وجبروتة لا يفوتها لحظة ولا تفوتة
الإمبراطور فى تابوته نايم هنا تحت ثراها
اما أحنا يا إسكندرانية طالعين جميعا شضليه
طبيعة فى الطين والميه متركبة تحت سماها
الاسكندرانى إذا صافح يغلط ساعات ويروح ناطح
وارثها عن جده الفاتح مخل الملوك اللى حماها
الاسكندرانى إذا اتحذلق جلنف لكن له مبدأ
يغواه لحد ما يتزحلق فى نابيه عمره ما ينساها
الاسكندرانى إذا اتحمس يفقد صوابه ويتطلمس
لحد ما يروح متكربس فى نقره إبليس يغشاها
كلن يقوم يغسل وشه ويروح يجيب اللى غشه
خلقته ويروح ناتشة راسين يعيش مسخة بعاهة
ونا اللى جيت من سيالة فيها العيال والرجاله
شجعان ولكن بهبالة يا ننتصر يا أكلناها

هكذا وقف " بيرم التونسي " على بعض ملامح الطبيعة المصرية في هذه الزجال ..

لكنه لم يقف عند حدود نقدها ، بل أشار ضمنا إلى بعض اسباب نشأة هذه الطبيعة التي تتسم بعض السمات السلبية ، فالميل إلى الإندفاع ، وسرعة الغضب ، والتهور ، والحمية والعصبية ، والغلظة التي تنعكس في السلوك العدواني في كثير من الأحيان ..

ترجع في الغالب إلى القهر الذي يعانية الشعب المصري ، فقد خضع هذا الشعب عبر القرون لصنوف من القهر والاستبداد والعسف والتسلط وانواع من الفقر والحرمان والكبت ، كان لابد أن تظهر نتائجها في العلاقات اليومية والسلوكيات العدوانية التي يمكن تفسير اغلبها على انها المتنفس الوحيد الذي يجده الشعب للتعبير عن مكبوتات اللاوعي الاجتماعي ، فالمقهور عندما يعبر عن الضغوط الواقعة عليه بشكل لا إرادي .. يمارس القهر على من هم أضعف منه ، او على من لا يملكون القدرة على قهرة والاستبداد به .

وهكذا ترتد علاقات القهر السياسي والاجتماعي والاقتصادي وتنعكس على العلاقات اليومية ، أو العلاقات الأسرية ، أو حتى علاقات الصداقة والحب والجنس ، وبعض هذه العلاقات تنعكس أيضا في صور سلبية أخرى مختلفة منها النفاق الاجتماعي في شكله الديني .. فقال :

فطرت على كوم لحم

فطرت الصبح فى الأتوبيس على كوم لحم بالجورجيت
ووجه صبوح وشعر يفوح بعطر الفل والفيوليت
وجوز رجلين يقول للعين جمالى ولا مستنجيت (١)
وفى غض البصر آيات وحافظها ولا غضيت

وبالله دا يبقى صوم ؟

ونص اليوم قعدنا كوم نداري الصوم ونتسلى
أكلنا لحم إخواننا يا ريته كان كباب حلة
أكلناه نى متحبش بسبب الدين والملة
وأمواتهم لعناهم وسبينا النسا فى البيت

وكيلنا التهم للقوم

وبعد العصر والصايمين ما بين تسبيح وقرايه
خانقت مراتى ومراتى ما بين منحخل ومقلاية
وستوتة اللى نفعانا فتحت دماغها بعصاية
ولما استفتح القرآن قفلت الراديو واتمديت

ويا صايم دواك النوم

---

(١) مستنجيت : راقصة زنجية شهيرة .

وقالوا لى السهر يحلى هناك فى حى لا تينى
ونا حى اللاتين سابق فى سهراته طلع دينى
ذهبنا للحسين واخدين بنات حى السكاكينى
وحى على الفلاح رنت ولا ردوا ، ولا رديت

وده كله فى اول يوم !!

وصورة النفاق الاجتماعى فى شكله الدينى كما صوره " بيرم " على النحو السابق .

لا تعكس بعض ما أصاب المجتمع المصرى من أمراض فحسب .

إنما هى أيضا توضح مدى تغلغل المرض الذى طال حتى الجانب الوجدانى والعقيدى والقيمى فى حياتنا الخلقية ، أى أن المرض قد تمكن فى هذه البيئة حتى أصاب الضمير الإنسانى - نفسة - بالفصام والازدواجية .

وهذه ظاهرة من اخطر الظواهر المرضية الاجتماعية ، وكان " بيرم " بحسة المرهف من أوائل من تنبهوا إليها ، على الرغم من أن علماء الاجتماع فى عصره لم يلتفتوا إلى مثل هذه الظاهرة فى دراساتهم عن المجتمع المصرى .

وما ذلك إلا لأن " بيرم " كان حريص كل الحرص على دراسة مجتمعة وبيئتة والتغلغل فى حياة هذا المجتمع والوقوف على كل أسراره .. ويتبدى هذا بكل وضوح من الزجل التالى :

خليل المنزولجى

خناقة دقت بين خليل ومراته كان السبب فيها البتوع بتوعاته
أبصر خروقة ولا هم لباساته القصد جتهم نيله هو وهى
ناموا على الدكة فى ليله جمعة من بعد ما اتعشوا وغطوا الدمعه
وكانت العادة بيطفوا الشمعة إلا هو يرفع ديل الناموسية
خليل قلق فى الليل وقام يتعتم وكان من الحرمة خايف متكتم
خاين على سريقة الطبيخ متعلم والليله قاصد حلة الملوخية

***

وقام يحسس فى الظلام ويطبش وكان ليليتها بالمناسبة محشش
ومد إيده إدلعدى بيفتش يكرم مقامكم صادف القصرية
خليل مشى يحبى تقولشى مكسح وجاب طورة عيش من سكات واتزحزح
وشمر الزندين كدا واتنحنح وقال نويت أخرب لها النملية
قالت عديلة تتضرب فى كمينك هو العشا نوبتين حرام على دينك
جاك سم هارى انشا لله فى مصارينك مسروع وعيلتك كلهم حرامية
راح متعزم لك بالقلم وعطاها وعضها فى يدها اليمين ولوها
وشروط الطرحة اللى كانت شاحتاها من أختها أم سى احمد الخضرية
دارت بين الراجل وبيته غارة لما بقى صريخهم يرج الحارة
لولا ما طلت م السطوح الجارة قالت يا ناس مالكم على الصبحية
قالت عديلة دا الراجل دا تعبنى يا يميش معايا حلو يا يسبنى

تلات سنين يا دلعدى مقلبنى	وكايدنى ومقلب ليلاتى عليه
أنا اللى خليته عليه القيمة	وكان داخل لى بجلبية قديمة
لو كنت واحدة بنت كلب لئيمة	خليته شاف النجم فى الضهرية
قالت جارتهم دا النهار رح يطلع	قوم يا خليل خد بلفاتك واتمتع
ومن النهاردة توب واوعك تبلع	يا ابنى دا المنزول عواقبة رديه

ففى الزجل السابق .. رصد لنا " بيرم " صورة للعلاقات بين الزوج والزوجة فى الحياة المصرية .

وقد تكون هذه الصورة لحالة خاصة ، لكنها رغم خصوصيتها تمثل النموذج العام للعلاقة الحميمة والخاصة بين شريحة عظيمة من الأسر المصرية البسيطة ، ويتضح ذلك من اللغة التى استخدمها " بيرم " على لسان خليل وزوجته ، إلا أن " بيرم " لا يتوقف كثيراً عند الحياة الخاصة للأسرة المصرية ..

وسرعان ما ينتقل إلى رصد ظاهرة اجتماعية أخرى من صور الفساد الدال على عدم تحقق العدل الاجتماعى .. حيث يقول فى الزجل التالى :

الضمان الاجتماعى

مليون جنيه الضمان للى حوجها الزمان

النص منهم يروح لموظفين الضمان

***

حرمه تقبض جنية وع الجنية فيه مدير

وللمدير مهيت وكيل وللوكيل ميت غفير !

وكتبه ومفتشين كتير وفوق الكتير

وسيارات للجميع تروح لبيت الفقير

تعمل تحرى عليه من الجيران والحيطان

***

عجوزة م الغابرين مولودة فى منقباد

جوزها فى جيش اسماعين من قبل مولد فؤاد

ومات ، ومات معاه بنات ، وماتت ولاد

واتشردت فى البيوت تخدم فى كل .. واد

وتقول لها المعازيل عايزينى شهادة ميلاد

وكمان شهادة وفاة عن اللى ماتوا زمان

***

برواه يا موظفين خايفين من النصابين
ومدعين الكساح والعمى والمشلولين
الأعمى يقدر يقول لله يا محسنين
أما المكسح يطول يمد إيده اليمين
وانتم جزاء الأمانة على النظام والروتين
حلال عليكم مكافأة النصب مليون كمان !!

وهكذا قدم " بيرم " الصورة الكاملة لما يحدث فى مؤسسة واحدة ، يمكن إعتبار النموذج الذى يمكن تعميمة للتنبوء بكل ما يحدث فى سائر المؤسسات الأخرى فى المجتمع ، فالفساد لا يقتصر على هيئة أو مؤسسة واحدة فى المجتمع ، كما قلنا ، ولكنه يستشرى ويمتد إلى كل المؤسسات والقطاعات ..

ومرة أخرى يتذكر "بيرم" الحياة فى الغرب، ويقارن بين مؤسسات الشرق ومؤسسات الغرب، ولكنه يعقد المقارنة هذه المرة بين مؤسسات الزواج..

فيكتب هذا الزجل تحت عنوان : " زواج أوربا " .

زواج أوربا

يتعرفوا الجوز فى القهوة ودعوه على غدوه وعشرة
وتانى يوم هيه وهوه يتوجهوا ع البلدية

***

واكتب كتابنا يا مسجل بدون مقدم ومأجل
وفى المسا عندها ينقل أو تتنقل عنده هيه

***

غرف بلادهم مفروشة ورخيصة على قد العيشه
ينيلك يام غويشة وبتليكى برزيه

***

تحطى مهر ابنك عشرة وعايزه فرش لكام حجرة
صالون ونوم واوده سفرة يا مولودين على طبلية

***

وإن كان غويشة المخطوبة يخلى جوزها كركوبة
وتواعدى من طوبه لطوبه وكل يوم عايزه هدية

***

لو كنت أقول كل جوازه فيها نكد يكفى جنازة
لكنت أنظم إلهاذه مصرية بدل اليونانية

ومن خلال المقارنة بين أساليب الزواج فى أوربا وأساليبة فى مصر ، يتعرض " بيرم " للعادات والتقاليد المصرية العتيقة التى يتمسك بها الإنسان المصرى على الرغم من أنه لا يجنى منها فائدة ، ولا تحقق له أيه مصالح دنيويه ، هذا إذا لم تكن بالفعل تقودة إلى المشاكل أو تعقيد الحياة أو إفسادها أو عرقلتها أو تقييدها فى قيود التصنع والتكلف .

ثم يعود "بيرم"، مرة أخرى إلى المجتمع المصرى، وصورة وشخصياته، فيسلط الضوء على مجموعة من الظواهر، ويتناول بالرصد والتحليل والنقد طائفة من الشخصيات، يرسم خريطة واضحه لحياتها ونمط تفكيرها وسلوكها .

ليقدم لنا فى النهاية مجموعة من أروع الأزجال التى يمكن إعتبارها سجلاً حافلاً بصور الحياة المصرية ودليلاً لأهم ملامح وسمات الشخصية المصرية فى تفكيرها وعلاقاتها ..

ولهذا كانت أزجال " بيرم " بحق هى الأزجال التى يخفق فيها نبض الشارع المصرى ، وهى الرئة التى نشعر فيها بانفاس الشخصية المصرية بمختلف أنماط فئاتها وفى مختلف أحوالها .. ولنأخذ على سبيل المثال شخصية " شيخ البلد " بكل ما تبعثة فى النفس من تقزز وبكل ما يحمله لها الشعب من كراهية وإحتقار .. من خلال الزجل التالى :

شخصية ذليل جبار - يتألف لها أشعار - ويزقطط بها الرسام
ويحـــــوّط عليـــــهـــــا إطار
يتلطم شهور وسنين - بمرايض الدواوين - ويبيع الجاموس والطين
علـى شـــــغلـه تودى النـار
مش عايز عليها فلوس - يكفاه أنه بس يدوس - على هام الرجال والروس
وتقف لــه البلد زنهـــــار
مش عايز فلوس بيقول - بزيادة أن إيده تطول - ويأدب غريم وعزول
ويخــوف كـــبار وصــغار
يا سلام لما يبقوا الكل - واقفين فى صفوف الذل - وينقى البنات الفل
يبـــعـــتـــهم على الدوّار
أو يوم يخطره المأمور - عن واحد هرب م الطور - ويفتش عن المذكور
ويجـــــاوب عـلى الإخطار
يمين بالطلاق محلوف - ليفدى الضيوف بخروف - فى الغالب يكون مخطوف
من أقــرب صــديق أو جــار
ويجيب الشيطان رجليه - ع القاهرة فى الكبارية - وتحوّط شفيقة عليه
تحــويط القطط ع الفــار!!

هى صورة كاريكاتورية رسمها " **بيرم** " ..

لكنها صورة حقيقية ، حية ، بكل طمعها وجشعها وحقدها وعدوانيتها وأنانيتها واستبدادها وجبنها ، وقد أستطاع " **بيرم** " أن يجعلنا نحتقر هذه الشخصية ، التى يحتقرها الفلاح - وهو أكثر من يعانى من أمثال هذه الشخصية ، وشخصية شيخ البلد ليست فى النهاية سوى النموذج الفاسد الذى يصلح تعميمة على رجال كبار الأقطاع ، والباشاوات ، والعمد ، وأهل السلطة والنفوذ ممن لا همّ لهم سوى إذلال الناس والبطش بهم والإثراء على حسابهم والتحكم فى مصيرهم وقوتهم .

وهناك الكثير من الشخصيات الأخرى التى رصدها " **بيرم** " ورسم لها البورترية المعبر عن حياتها وشخصيتها بكل سماها وملامحها الخاصة .. ومنها شخصية " **الفلاح** " وشخصية " **العامل المصرى** " و " **التاجر** " .. ولكننا قبل أن نستعرض الصور التى رسمها " **بيرم** " لهذه الشخصيات المصرية ..

نحب أن نتعرض لبعض صور الحياة المصرية التى قدمها " **بيرم** " وخاصة الصور التى تتغلغل إلى أسرار البيوت وتفضح بعض مكائد النساء ، وقد قدم " **بيرم** " لنا هذا النموذج الخاص فى الزجل الذى كتبه تحت عنوان : "**بيت رضوان**" حيث رصد العلاقات السرية فى هذا البيت على النحو التالى:

بيت رضوان

سكنت بيت جوه حاره إسمه بيت رضوان فيه كل ما تشتهية ، الفشة والمصران
من الصباح للغروب ، أهجم على الدبان ومن الغروب للصباح ، أجرى ورا الفيران
فى أول الشهر صاحب الملك وصانى على الملاقى وحفظنى وقرانى
قال أوعى حاسب تعيد الغلط من تانى لأن يوم طب فيه واحد وكان سكران
رضيت ومن يرضى بالعذاب يرتاح وفضلت وحدى ماليش صاحب غير المفتاح
بعيد عن الشر ، جانى أول استفتاح تهمة غرام ، وادعتها أوحش الجيران

***

جاره عجوزه لكن عايقه وغندوره حطة السنان الدهب ، والقامطه عالقوره
أولادها جدعان ثمانية والبنات طوره وجوزها مستهوى مقطوع النفس دهبان

***

الست بتحب سرا ، واد مجاور شيخ يومى على الله تدخل له بصحن طبيخ
راخر يجيب الهدية ، م الأجازة فسيخ لا القرع يظهر ولا قشر الفسيخة بيان

***

أما العزول اللى شايف دا الغرام جاره عارجة وفوق ضهرها كمبور ومكاره
خلت فضيحة الوليه شايعة فى الحارة وناوية تصبح تبلغ جوزها فى الدكان

***

سمعت رفيقة المجاور دا الخبر فى الليل وجوزها داخل ليله جمعة ، وعنده ميل
شهقت وقالت ودبت صدرها بالحيل قال جوزها مالك ما هى الدنيا بخير وطمان

قالت جابولنا جدع عازب وحطوه فوق   جدع يابوفرغلى بارد ما عندوش ذوق
تبعنى نوبه من القلعة لباب اللوق   نهار ما حبيت أزور البنت فى حلوان

***

الليلة خلانى قاعدة بالقميص المور   وهو ع الباسطة فى الضلمة وطافى النور
دعس عليه لا با ـ ـاتر ولا دستور   مالحقتش اتفضى والبارد ضحك لى كمان

***

إهئ مهئ ! بينضرب قادر ما يوعى بيات   إهئ وينشك فى قلبه ولم يتفات
وينضرب زى ما خلانى قاعدة وفات   وشافنى من فوق لتحت الصايع الندمان

***

سمع صاحبنا الحكاية ، تنته طالع   على السلالم وعينه فصها والع
خبط فتحت ، القى ده راجل كبير قالع   وماشى حافى ، وفى إيده عصا خرزان

***

أول ما شاف وشى قال يلعن أبوك خنزير   وأبو اللى جابك هنا عبدلله فندى بكير
وابو اللى يجى يحامى لك ، كبير وصغير   بارد قليل الحيا دمك صحيح هربان

***

عشرين سنه ما بن آدم شاف حريمى يوم   وبيتى جامع مافيه غير الصلا والصوم
حتى البنات والعيال عايمين على دا العوم   وازاى متدخل ف بيتى والحريم عريان

***

اطلع لى بس كـده بره ، ونا أوريك   واجيب لك ابنى الكبير عبداللطيف يمميك
وابنى كامل افندى ف البوليس يأذيك   تهيت وقلت اعوذ بالله من الشيطان

على أيه يا عم البوليس والخوته والهرجة   احلف يمين انى ف الداخلة وف الخارجة
ماشفت فى البيت ده عمرى غير مره عارجة   ووراد مجاور بجبة أصلها قفطان

***

ردت وقالت لى منك يا جدع لله   إنزل يابومصطفى دا شغل أنا عارفاه
انشالله من جاب سيرتى ينضرب فى حشاه   وتخوض فى دمه اليهود والمسلم السكران

***

نزل وقال حابقى اشوف شغلى أنا بعدين   واجمص جميص يبتسم لك ولاّ يضرب عين
عن إذنى حطى صوابعك فى عينيه لتنين   بقول على علو حسى قدام الجيران

***

على أن ما يقصدة " بيرم " من رصد وتصوير مثل هذه العلاقات السرية ليس مجرد فضح هذه العلاقات ، أو التدنى بمستوى الموضوعات التى يتناولها الفن والابداع ، فهو يتناول العلاقات السرية لكى يقف على بعض أسبابها ، فظواهر الفساد الخلقى جزء لا يتجزأ من الفساد الاجتماعى ، والخيانة الزوجية فى ذاتها دليل على تفكك الأسرة ، وتفكك الأسرة دليل على انحلال البناء الاجتماعى وإصابة المجتمع بالكثير من الأمراض الخطيرة .

لهذا كان على " بيرم " أن يعود إلى رصد هذه الظاهرة مرة أخرى ، فى محاولة لتحليلها والوقوف على بعض أسبابها ، ولكى يوضح هدفه من تناول مثل هذه الظواهر والعلاقات السرية .. فالهدف الواضح " لبيرم " منذ البداية هو " النقد " من أجل الاصلاح ، ولم يكن " بيرم " فى أى فترة من حياته من أنصار أدب الفضائح ، ولا كان من منهجة أن يلجأ إلى دغدغه الغرائز أو إثارتها .

ولهذا نراه يعود بالفعل إلى تناول نفس الظاهرة التى تناولها فى " بيت رضوان " ولكن هذه المرة فى منطقة شعبية أخرى وفى بيت آخر فى " حارة البغال " ويرصد حاله مماثلة من حالات الخيانة الزوجية ، لكنه يتابعها إلى أن ينتهى إلى تقرير أحد أهم أسباب الخيانات الزوجية وهذا ما يوضحة الزجل التالى الذى يحمل عنوان : " الفقر "

الفقر

البيت أبو درفتين فى حارة البقال   وتحته دكان جدع أسمر خفيف بقال
فيه فوق مره ملحمة جوزها من العمال   فى شغلة جمعه وجمعه يترمى بطال
أما المره بنت عيله أصلها من بيت   اتهد وانشال أساسه ذى ما اتهديت
عاشت معاه بالوفق فى العسل والزيت   سبع سنين بدرت فيهم بست عيال
الوقتين الدقيق ياكلوها بالتدقيق   أما الغموس غموس بالدمعة والتحديق
ويعلم المولى والبقال بالتحقيق غير   الزتون ماشترت من عنده وى الأطفال
بعتت له يوم الولد لما اتضى حالها   والباتشاويش اللى بيلم الفقر جالها
قال له الولد معبتشى وفى ايده خلخالها   بتقولك أمى والنبى سلفنا نص ريال
شاف الجدع وسع خلخالها اللى زانقها   مصدى من جوه من مطروح عرق ساقها
فكر وقال دى مره سبحانه خالقها   خلقها محم وجوزها صنعته شيال !
روح يا ولد قول لها رهن المصاغ ده عيب   وخد أهو ريال بوشه والريال فى الجيب
وقول لها فضى فكرك م الوفا والغيب   شوفى انتى نفسك وروحك والبسى الخلخال
قالت لجوزها الحكاية راح له دكانه   الصبح يشكر له معروفة واحسانه
صبح قوام الجدع من عز إخوانه   ياخد ويعطى حسب ما تسمح الأحوال
إن سبح السمن نويه شحت الحله   ون عاز يبل الزتون يشحت كمان قله
وشحت الشط راخر يوم ما يتغلى   ويوم ما يكنس محله يشحت الغربال
قلبت محبة داخلها الغش والبغبيش   وصار كلام الحبايب كله بتوشويش
والراجل المنكسر كان يحسبه درويش   لما قالت له الجدع ده والنبى ابن حلال

يسأل عليك كل ليله قبل ما يقفل — وكل شئ يبعت لى : ملح أو فلفل
دخل عليه الفتيل يا عم واتفغل — كانت خيطان المحبة اتبدلت بحبال
إن كنت يا بن العرب راجل فقير وضعيف — فوت الجواز للغنى واقعد وحيد وشريف
دى العفه غالية ولكن تنشرى برغيف — والفقر يرمى العفيف فى أوسع الأوحال

وهكذا انتهى " بيرم " إلى أن سبب الفساد الخلقى هو :

" الفقر " .

والفقر مرض من الأمراض التى تصيب المجتمع ، مثل الأمية ، نتيجة للفساد السياسى : فلولا الفساد السياسى لما ظهرت فى المجتمع أمراض التخلف والفقر والجهل والقهر والاستبداد ، ولما ظهرت الأمراض الأخرى مثل الأزدواجية الفكرية التى تدل على فصام الشخصية وغير ذلك من الأمراض .

ويعود " بيرم " .. مرة أخرى ليتابع الشخصية المصرية فى إنماطها المختلفة من خلال الفئات والطوائف فيبدأ بتقديم شخصية " التاجر " ويقع إختيارة على شخصية لتاجر خضار ، فنراه يرسم لنا صوره هذا التاجر عندما يتحول إلى ثرى ، ويرصد تحولات هذه الشخصية وسلوكياتها فى زجل من أبدع وأروع ما كتب " بيرم " تحت عنوان .. " تاجر خضار " .

تاجر خضار

أهل المعـــارف يقـــولوا الناس مـــقـــامـــات
لا بالملابس ولا بـالأكل والركـــوبات
كام من غنى بالدب لابس هدوم شحات
ومن غجر فى البلد دى واسمهم بهوات
رأيت ركـــوبه بتـــتـــمـــخطر بواحـــد بيـــه
راكبه وراشق فى ظهر العربجى رجليه
ســـألت من تخن صـــدغى اهل حـــارته عليـــه
قالوا : دا تاجر خضار عنده سبع عتبات
جـــمـــيع خـــضـــار البلد من قـــرع وبدنجـــان
والبـامـيا والكرنبـيت اللفت والشنوان
تورد عـلى مكتب بـالجـــملة م الغـــيطان
وهوه نفسه اللى يعطى بتوع الخضارات
تشـوفـــه قـــاعـــد بشـــيـــشـــتـــه وفنجـــانه
مـركون على خزنه مقفولة على مـاله
يؤمـــــر وينهى وتـت الأمـــــر عـــــمـــــالة
كاتب مماه الشهادة ، واربعه فتوات
البيـه دا كـان م الجـمـايدة المجـرمـين سـابق
ولـه عـلامة على ايده اليمـين داقق

ولما فات الهجص والصرمحة رافق

في سوق خضار مصر بياعه بلح امهات

والبيه جميع الخلايق تعرفة في مصر

لوما الملامه لكان خلا المره في قصر

لكن في روض الفرج يومي ياخدها العصر

يطلب له شيشة ، ويطلب للمره شربات

تقعد بشقة وتعطى وشها للبحر

ما تشوفش من جسمها غير البزاز والنحر

في كل يوم عالحلادى ، لما فات الشهر

زاد الغرام والمجانسة استحكمت حلقات

قالت بتاعه البلح للبيه ما تحكى لى

حبك دا حب الهوى ، ولا فتاجيلى

وقت الغرام في المسا تبعت تناديلى

والصبح ما تقولى لا اشحالك ولا سلامات

قال كل شئ تطلبيه يا مسعده موجود

والمال دا كله ما يبعد عن عنيكى السود

مين في وصالك بجلده والسقط ما يجود

لكن أنا قصدى اسمع بس قوله هات

قالت له مات عندنا فى السوق جدع سماك
عايزين يبيعوا محله فى الدلاله عداك
إن كنت قصدك تاخدنى ع الدوام وياك
الصبح خد لى محل الراجل اللى مات
وتحط لى فيه ولو حملين خضار ، اتنين
اتسلى فيهم واطلّع منهم القرشين
وادفع مقدم ما اخلى لك عليَّه دين
وِن زاد حسابك أحوّلك به كمبيالات
ما جا الصباح ، إلا كانت مسعده التشه
على المحل الجديد بتش بمنشه
قدامها دكان لواد عايق بتاع كرشه
بينه وبينها علايق من تلات سنوات
كملت حظوظ الصبيه والواد الصبوه
فى ساعة الضهر عنده، يعملوا الغدوه
وفى العشا عندها تتحضر العشوه
ويقفلوا الباب عليهم لما ينووا بيات
فات صاحب العزه ليله يضرب الطالع
شاف المحل اتقفل والنور وراه والع

بص التفى الحرمة قالقة والولد قالع

هبد على الباب بالقوة خمس هبدات

فتحت قوام قالها : هاتى الحساب هاتى

أنا اللى جزتك وبديتك على مراتى

وآخرتها خنتى ورافقتى الكراشاتى

آدى جزاه كل من يستأمن اللبوات

وخش فى الحال لخصمه بالقلم وعطاه

راخر نهض له بعزمه ، بالبوينه رماه

فقعت بصوتها المره جاها الشويش ومعاه

شيخ الغفر، والغفر، جروا الجميع بشمات

البيه عشان رتبته العاليه أكل كام كف

والواد فى بوكس الفتوات اتحدف لك حدف

ومسعدة تبات وتصبح تتبعت عالكشف

آدى تجار الخضار، إن أصبحوا بهوات

وينتقـل " بيرم " بعد ذلك إلى شخصية أخرى هى شخصية " الفلاح " .

ويختلف تناول " بيرم " لهذه الشخصية عن تناولة للشخصيات السابقة ، ويبدو هذا واضحا كل الوضوح حتى من خلال الشكل الفنى ، والأسلوب ، فقد أختار " بيرم " أن يتناول شخصية الفلاح من خلال " الموال " الذى يترنم به الفلاح وهو يعمل فى أرضه .

والفلاح يمثل الطبقة التى تنهض باقتصاد البلاد ، فهو الذى يزرع ويحصد ، ويشقى فى العمل طوال العام لكى نأكل نحن بينما لا يحصل هو على ما يكفى قوته وقوت أولادة وأسرته ، فالطبقة الفلاحية هى أكثر الطبقات بؤساً وفقراً فى مصر ، وهى أكثر الطبقات التى تعانى الظلم والقهر ، وأشد الطبقات شعوراً بانعدام العدل الاجتماعى .. ولقد أدرك " بيرم " هذه الوضعية المأساوية التى يحياها الفلاح المصرى البائس فكان عليه أن يعبر عما يكابده الفلاح من معاناة وظلم ، ولذلك لجأ " بيرم " إلى أسلوب الموال .. والشكوى .

وعندما اختار " بيرم " هذا الأسلوب وهذه الوسيلة التعبيرية جاءت شكاية الفلاح مؤثرة، صادقة، معبرة ، ناضحة بالحزن والألم والمرارة ، وهنا .. ولأول مرة لم يستخدم " بيرم " أسلوب التهكم أو السخرية ، حيث لا مجال هنا للتهكم أو السخرية ، فقد كان همّ " بيرم " هو التعبير من خلال الشكوى ، شكوى المظلوم من الأوضاع الجائزة الظالمة .. وكان على " بيرم " أن يتحدث على لسان الفلاح ويجأر بتلك الشكوى بعدا عن السخرية والتهكم .. فجاءت الشكوى حارة صارخة فى نبرات مرة مرارة الواقع .

الفلاح

الأولة آه .. والتانية آه .. والتالته آه ..
الأوله عيرونى ، إن أنا فلاح ..
والتانيه أزرع وأقلع للى نام وارتاح
والتالته آه ، اللى بحبة شط منى وراح

***

الأوله ،عيرونى إن أنا فلاح بدفيّه (١)
والتانيه ، أزرع وأقلع للى نام وارتاح فى دهبيه
والتالته آه ، اللى بحبة شط منى وراح فى صبحية

***

الأوله ،عيرونى إن أنا فلاح بدفيّه وعيشى حاف
والتانيه، أزرع وأقلع للى نام وارتاح فى دهبيه بميت مقداف
والتالته آه، اللى بحبة شط منى وراح فى صبحية ما قالى عواف

***

الأوله : مش بايدى ده قضا محتوم
والتانيه : ومسيرها ناس تغرق وناس حا تعوم
والتالته : ميت هم يرحل ، ألف هم يدوم

***

الأولة آه .. والتانية آه .. والتالته آه ..

(١) عباءة خشنة من الصوف

وبنفس الأسلـوب .. تناول " بيرم " شخصية " العامل المصرى " .

فهو أيضا يمثل الطبقـة الكادحة ، البائسة ، المظلومة ، المطحونة ، التى تعمل وتشقى ولا تحصل على ما يفى بحاجتها فى مواجهة الحياة .. وهنا أيضا أضطر " بيرم " إلى استخدام نفس الأسلوب ، أسلوب الشكوى .. والبعد عن التهكم والسخرية ، والاكتفاء بتبنى صوت العامل وشكواه والتعبير عن محنته وبؤس حياته هو وأولادة وأسرته .

فكان الزجل الذى كتبه عن شخصية العامل وحياته ومعاناته لا يقل روعة ولا صـدقاً فى التعبير عن الوضع الجائر الذى يحياه العامل المصرى من الصدق الذى عبر به عن شخصية الفلاح وحياته والظلم الواقع عليه .. ولقد أكتفى " بيرم " فى الحالتين باسلوب الشكوى لأن التعبيرات التى استخدمها كانت عاليه النبرة قوية التعبير مشحونة بالاحساس القوى الصادق بمدى فداحة الظلم الذى يتعرض له كل من الفلاح والعامل فى حياتهما البائسة .

العامل المصرى

ليه أمشى حاف ، وانا منبّت مراكبيكم
ليه فرشى عريان ، وانا منجّد مراتبكم
ليه بيتى خربان ، وانا نجار دواليبكم
هى كده قسمتى ؟
الله يحاسبكم !!
ساكنين علالى العتب ، وانا اللى بانيها
فارشين مفارش قصب ، نا سبح حواشيها
قانيين سواقى دهب ، وانا اللى أدور فيها
يا رب ماهوش حسد
لكن بعاتبكم
من الصباح للمسا ، والمطرقة فيدى
صابر على دى الأسا !! حتى نهار عيدى
ابن السبيل انكسى ، واسحب هرابيدى
تتعروا من مشيتى
واخجل أخاطبكم
ليه تهدمونى وانا اللى عزكم بانى
أنا اللى فوق جسمكم قطنى وكتانى
عيلتى فى يوم دفنتى ما لقيتش أكفانى
حتى الأسّية وانا راحل .. وسايبكم !!

وبهذا تنتهي رحلتنا مع " بيرم التونسى " ..

تنتهى الرحلة دون أن نتمكن من الوقوف على كل جوانب إبداع هذا الشاعر العبقرى ، أمير شعراء العامية المصرية ، وشاعر الشعب ، وكيف يمكننا أن نحيط بكل جوانب إبداعة وقد أختار لنفسة أن يكون ضمير الأمة ، والسجل الحافل لحياتها ، والقلب الخافق بنبضاتها ؟

ولذلك ستظل أعمال " بيرم التونسى " هى النبع الخالد الذى نرجع إليه جميعا كلما أردنا أن نغوص فى أعماق الحياة المصرية .. فليس هناك ما هو أصدق تعبيراً من أزجال " بيرم التونسى " عن مصر .. وشعب مصر ، وليس هناك ما هو أصدق تعبيراً من أزجال " بيرم التونسى " عن طموحات هذه الأمة وتطلع شعبها إلى الحرية والتقدم ، لقد عاش " بيرم " بمصر ولأجل مصر ، ومات ..

فظلت كلماته هى النبض المعبر عن قلب وعقل ووجدان هذه الأمة ، عاش " بيرم " لمصر .. ورحل عنها ففتحت له مصر .. باب الخلود .. ليظل فى قلوبنا إلى الأبد ..

النبع الخالد

المصـــادر

الأعمال الكاملة لبيرم التونسي

إشراف رشد صالح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (أجزاء)

الأعمال الكاملة لبيرم التونسي

مكتبة مصر ، القاهرة

بيرم رائد الزجل

ميلاد واصف ، (د ت ، د ن)

الذكرى المئوية لميلاد موسيقار الشعب

سيد درويش ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٢

مجموعة أبحاث فى ذكرى بيرم التونسى إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة أعوام مختلفة



المحتويات